د. يحيى بن ابراهيم اليحيى

المربي

إلى من

ضاقت عليه نفسه

المربي

د. يحيى بن ابراهيم اليحيى

إلى من

ضاقت عليه نفسه

إلى من
ضاقت عليه نفسه

د. يَحْيَى بن إبرَاهِيمَ اليَحْيَى

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014م

لكل مسلم حق طبع هذا الكتاب دون تغيير

التنفيذ الفني

دار وجوه للنشر والتوزيع
Wajoah Publishing & Distribution House
www.wojoooh.com

المملكة العربية السعودية - الرياض
هاتف: 4562410 1 966 +
info@wojoooh.com

ح/ يحيى إبراهيم اليحيى، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اليحيى، يحيى إبراهيم
إلى من ضاقت عليه نفسه/ يحيى إبراهيم اليحيى- الرياض
١٠٤ ص؛ ١٤,٥ x ٢١,٥ سم
ردمك: ٩-٣٦٠٤-٠١-٦٠٣-٩٧٨
١-كعب بن مالك بن عمرو ٢- الصحابة والتابعون أ. العنوان
ديوي ٩, ٢٣٩ ١٠٥٩٣/ ١٤٣٤
رقم الإيداع: ١٠٥٩٣/ ١٤٣٤
ردمك: ٩-٣٦٠٤-٠١-٦٠٣-٩٧٨

تقديم

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ علَى أشرفِ الأنبياءِ والمُرسَلين، نبيِّنا وإمامِنا مُحمَّدٍ وعلَى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِينَ. أما بعد: فيسرُّني أخي القارئَ الكريمَ أن أسُوقَ إليك قصة حدثت في أعظمِ مجتمع وأروع جيل عرَفهُ التاريخ، تحمِلُ في طيَّاتِها رسائلَ فهي:

رسالةٌ إلى مَن يُعاني مِن اضطراباتٍ نفسية!..

رسالةٌ إلى مَن يَمُرُّ بأزَمَاتٍ!..

رسالةٌ إلى مَن يُعاني مِن متاعب وشَدائِدَ.

رسالةٌ تصفُ كيفَ يكون الخلاصُ من استشمار الشَّيطانِ للأخطاء والكبوات.

وتبيِّن سبيل النَّجاةِ مِن استغلال الأعداء لبعض الأحداث التي يَمُرُّ بها المؤمن.

رسالة تصِفُ عاقبةَ الصِّدْقِ والوُضُوح وكيفَ يكون الثَّباتُ على المبادئ؟

رسالةٌ تحذِّرُ من الالتفات إلى المثبِّطات.

رسالةٌ تعين على الثَّباتِ على القَرار الصائب.

رسالةٌ إلى السَّبّاقِين تُبين لهم كَيْفَ يَتخَطَّوْن العَوائقَ؟

رسالةٌ إلى الْـمُتقاعِسينَ عن العَمَلِ.

رسالةٌ إلى كُلِّ مُتَخلِّفٍ عَن الرَّكْبِ بالتَّسويفِ والتَّأجيل.

رسالةٌ تَدْعُو إلى انتهاز الفُرَص، وتَرْكِ العَجْزِ والكَسَل.

رسالةٌ تَبْنِي حُبَّ الْـمُبادَرة والْـمُسابقة!

رسالةٌ تطرد الأَحْزَان.

رسالةٌ تقطع سِلْسِلة الذُّنُوب بحَاجز التَّوبة.

رسالةٌ في كيفيَّة استثمار الكَبْوةِ والهفْوَة والزَّلَّة للصُّعُود إلى القِمَّة!

رسالةٌ في قَطْعِ علاَئقِ الشَّرِّ وأسبابِه.

رسالةٌ في التَّعَالِي علَى أَهْلِ الباطلِ ومُسَاوَمَاتهم وعُرُوضهم.

رسالةٌ تبين أهمية بعد النَّظَرِ وعُمْقِ التَّفْكيرِ وجَوْدةِ التِّخْطِيط!!

رسالةٌ في قِياسَ رُدُود الأفعال!

رسالةٌ تَحْكِي فَرْحةَ مُجْتَمَعٍ بأَكْمَلِه مِن أجْل نجاح شَخْص منهُم!!

كلُّ هذه الرَّسائلِ وغيرُها تأْتيكَ في التَّجْربة العظيمة الَّتي وَقَعَتْ في أطْهَرِ مُجتمَعٍ وأنْقاهُ وأفضَلِه، وقد خاضَ معاناتها أحد السابقين إلى

الإسلام الذابين عن حياضه الشَّاعِرُ الشَّابُّ الْـمُجاهِدُ بيدِهِ ولسانِهِ، شاعرُ الحرْب!!

وقد أسلمت دوسٌ فرَقًا من قوله[1]:

نُخَيِّرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ قواطِعُهُنَّ دوسًا أو ثَقيفَا [2]

يَنتَسِبُ إلى قبيلةٍ من أعْرَق قبائلِ الأنصارِ، مِن خَزْرَجِها، إنَّهُ كعب بن مالك بن أبي كعب عمرو بن القَيْن بن كعب بن سواد بن غَنْم بن كعب بن سلمة الأنصاريّ، الخزرجيّ..

لقَد سطَّرَ لنا كَعْب بنُ مالكٍ رضي اللهُ عنه تجربتَهُ ومُعاناتَهُ في أُسْلُوبٍ قَصَصيٍّ ماتعٍ أَخَّاذٍ، يجعلك تَنسَى نفسَكَ في ثَنايا القصة وبَيْنَ فُصُولِهَا، وتَستَمْتعُ بقراءة هذه القصَّةِ العظيمة والتَّجْربة النَّاجحةِ.

فدُونَكَ القصَّةَ لتَعِيشَ في أجواءِ الْـمُجْتَمَع النَّبويِّ الشَّريف،الطَّاهِر النَّقِيّ، الْـمُتَأَلِّق المضيء[3].

د. يحيى بن إبراهيم اليحيى
yiy55555@gmail.com

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الإشراف على منازل الأشراف (ص٣٠١) بإسناده عن ابن سيرين، وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٢٥).

(٢) بيت من الوافر، من قصيدة مطلعها:

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةَ كُلَّ رَيْبٍ وخيبَر ثمَّ أَجْمَمْنَا السّيُوفا

(٣) قطَّعتُ القصَّةَ نظرًا لكثْرَة الرَّسائلِ الّتي تَحتويها؛ فلا أُحِبُّ أن تَمُرَّ على القارئ الكريم رسالةٌ دُونَ أن ينتبهَ لها؛ لذلكَ اخترْتُ تقْطيعَ نصِّ القِصَّة لإبْرَازِ رسائلِ وفوائدِ كُلِّ مَقطعٍ منْها، وستجدها كاملة في آخر الكتاب.

بِر الوالدَين بركة

روى البخاريُّ في صحيحه قال: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْر، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْل، عَنْ ابْنِ شِهَاب، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَن بْنِ عَبْدِ الله بْنِ كَعْب بْنِ مَالِك أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ كَعْب بْنِ مَالك وَكَانَ قَائِدَ كَعْب مِنْ بَنِيه حِينَ عَمِيَ قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِك يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ تَبُوكَ.

١- إنّ ظاهرةَ بُرُوز الأُسَر العلمية في المدينة النبوية وغيرها ناتجةٌ عن نجاح التربية؛ فعبدُ الرحمن يَروي عن أبيه عبدِ الله، وعبدُ الله يروي القصةَ عن أبيه كعب!؛ ولقد برزت في تاريخنا أُسَرٌ كاملةٌ نبغتْ في العلم والعمل، مثلُ: آلِ المنكدرِ محمدٍ وعمرَ، وآلِ عقبةَ: إبراهيمَ وموسى ومحمدٍ، كُلُّهُمْ فقهاءُ محدِّثونَ، وآلِ عبدِ اللهِ بنِ أبي فروةَ: إسحاقَ وعبدِ الحكيمِ وعبدِ

الأعلى ويونسَ وصالح، وأبي الحسنِ، وإبراهيمَ، وعبدِالغفّار، ولو تأمَّلنا حالةَ كثيرٍ من أهل العلم والدعوةِ في زماننا لوجدنا انفصامًا وخلَلًا كبيرًا بينهم وبين أُسَرهم، وتباعُدًا في الهِمَم والتوجُّهات، ولعلّ ذلك راجعٌ في جانبٍ كبيرٍ منه إلى ضعف المخالطة المؤثِّرة بينهم وبين أُسَرهم.

٢- من حُسن التربية إفساحُ المجال للأبناء لخدمة والدهم؛ فمع وجودِ الخدَم والعبيد عند الصحابة نجد أنّ كعبًا جعل قيادتَهُ لابنه عبدِالله، فقارِنْ بين هذا وبين مَن يعتمدون على الخدَم والسائقين مع وجود أبنائهم!، فيَحرِمونهم من الاستفادة من خبراتهم، ومن أجْرِ البرّ.

٣- من فضائلِ البرّ والصلة والملازمةِ للأب أن يَحظَى الابنُ بنصيبٍ وافرٍ من العلم والأدب، ولهذا روى هذه القصةَ العظيمة عبدُ الله من بين إخوانه؛ لكونه قائدَ أبيه حين عَمِي، فمصاحبةُ الآباء تعود بفوائدَ عظيمةٍ على الأبناء حيثُ تُتيح لهم فرصةَ أَخْذِ التّجارِب والخبرات من آبائهم فيُساعدُهم ذلك على خوض غِمار الحياة بيُسْر وسُهولة، كما أنّ مصاحبةَ الآباء تُتيحُ لهم تصويبَ أخطاءِ أبنائهم وإرشادَهم إلى الأحسن دائما؛ لأنّ الآباء يُصارِحون أبناءَهم ولا يُجاملونهم؛ لحرصهم على مصالحهم، فإذا كان المسلِمُ مأمورًا بوَعْي التاريخ الماضي فإنّ الاستفادةَ من تَجارِبِ المعاصرين أَوْلى:

ومَن روَى أخبارَ مَن قد مضَى أضافَ أعماراً إلى عُمـــرِه

٤- معَ كثْرَةِ الخدَم والعبيد في ذلك الوقت لم يترك لهم أبناءُ كعبٍ خدمةَ والدهم، وهذا دليلٌ على وَعْي الأولاد، وعُمْقِ التربية، وكونِ

الآباء قُدوةً لبَنِيهم، ومحلَّ ثقتِهم، فإذا تعب الأبُ في تربية أبنائه وغرسَ حُبَّهُ والثقةَ به في قلوبهم فإنّ الله لا يُضيع أجر مَن أحسن عملًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾[1]، وسيجد أثرَ تربيته لهم في برِّهم إيّاه.

بَعث عبدُ العزيز بن مروانَ ابنَهُ عُمرَ إلى المدينة يتأدّب بها، وكتب إلى صالح بن كَيْسان يتعاهدُه، فكان يُلزمه الصلوات، فأبطأ يومًا عن الصلاة، فقال: ما حَبَسك؟ قال: كانت مُرَجِّلتي تُسكّن شعري، قال: بلغ منك حبُّك تسكينَ شعرك أن تُؤثرَهُ على الصّلاة؟! فكتب إلى عبدِ العزيز يذكر ذلك، فبعث إليه عبدُ العزيز رسولًا، فلم يُكلِّمْه حتى حَلَق شعرَه[2].

انظر إلى عِظَم اهتمامهم بصلاة الجماعة، وشدّةِ حِرْصِهم على تربية الولد، وكَم صُرِفَ من أموالٍ بسبب تعديل خطإٍ واحد نَعُدُّه اليومَ سهلًا، لقد كلَّف هذا الخطأُ رحلةَ رجلين من المدينة إلى مصر، ومن مصر إلى المدينة، لمدة تزيدُ على شهرين، ولم يتساهلِ الشيخُ ويتولَّ تأديبَ الولد نيابةً عن أبيه، ولم يَكِلِ الوالدُ خطأَ ولدِه إلى الشّيخ، بل أرادا أن يُلقِّناه درسًا لا يَنساه، وبعد ذلك ماذا كان عمرُ بن عبد العزيز؟! قال بعضُ السلف: لما حَفِظوا الله حَفظهم الله في أولادهم.

(١) سورة الكهف: ٣٠.

(٢) المعرفة والتاريخ (١/ ٣١٦).

٥- شرفُ الآباء شرفٌ للأبناء؛ فالقصةُ من مناقب كعب، ونقَلَها للأبناء تربيةً لهم، فلا يَليق بهم أن يُقصِّروا عن سلوك طريق آبائهم، قال لبيد:

فَإِن أَنتَ لَم يَنفعْكَ علمُك فَانْتَسِبْ لَعَلَّكَ تَهديكَ القُرونُ الأَوائِلُ [1]

فينبغي للأب أن يكون مَثَلًا أعلى يَفتخِر الأبناءُ بالانتساب إليه، فهذا من أعظمِ الحوافزِ على سلوك سبيل المعالي، فتبقى مآثرُ الآباء في الأبناء. وفي قصة عَمرِو بن سعيد بن العاص عبرةٌ، لمّا مات أبوه قال له معاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا غلامُ، إلى مَن أوصى بك أبوك؟ قال: إنّ أبي لم يُوصِ بي ولكنه أوصى إليَّ، قال: بم أوصى إليك؟ قال: أوصى إليَّ أن لا يَفقِد إخوانُهُ إلا شخصَهُ[2].

(١) بيت من الطويل، من قصيدة مطلعها:

أَلا تَسأَلانِ المَرءَ ماذا يُحاوِلُ أَنَحبٌ فَيُقضى أَم ضَلالٌ وَباطِلُ

(١) البيان والتبيين (ص١٦٧)، وأنباء نجباء الأبناء (ص١٣٤).

لا مُسوِّغَ للتقاعُس عن عمَلِ الخير

قَالَ كَعْبٌ: «لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلاَّ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلاَمِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا. كَانَ مِنْ خَبَرِي: أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ وَاللهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ».

١- قال ابنُ القيّم: «فيه جوازُ إخبارِ الرجل عن تفريطه وتقصيره في

طاعة الله ورسوله، وعن سبب ذلك، وما آل إليه أمرُه، وفي ذلك من التحذيرِ والنصيحةِ وبيانِ طرُق الخير والشرِّ وما يترتّبُ عليها ما هو من أهمِّ الأمور»[1].

لقد كان عند السلف من الشجاعة ما يؤهِّلُهم للاعتراف بأخطائهم، وبعضُ الناس اليوم يتنكّرون لعيوبهم وأخطائهم؛ إما لأنهم لم يتوبوا، أو لم يستفيدوا منها، وبعضُهم إذا استفاد قَصَر الفائدةَ على نفسه، فنقول لهذا: إن لم تكن عندك جُرأةُ الاعتراف، أو رأيتَ أنه يجُرّ إلى مفسدةٍ أكبرَ فاذكرِ الفائدة ولا تُسَمِّ؛ لينتفع غيرُك وتكسِبَ الأجر.

٢- من الأمور المهمة معرفةُ قيمة الأعمال، والأحداث، والأحوال: «وَمَا أُحِبُّ أنّ لي بها مَشْهَدَ بدرٍ... إلخ».

ومن آثارِ الجهل بهذه الحقيقة اهتمامُ بعضِ الناس بالمفضول من الأعمال وتَرْكِ الفاضل، كالحرص على ما يقومُ به العامّة، بغيرِ موازينَ تميِّزُ الأهمَّ من المُهمِّ، وهنا تظهر أهميةُ فقه الأولويات والموازنة. قال ابنُ القيّم: «ليس الدينُ بمجرّد ترك المحرّمات الظاهرة، بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله، وأكثرُ الديّانين لا يَعبأون منها إلا بما شاركهم فيه عمومُ الناس، وأما الجهادُ والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، والنصيحةُ لله ورسوله وعبادِه، ونُصرةُ الله ورسوله ودينه وكتابه، فهذه الواجباتُ لا تَخطُر ببالهم فضلًا عن أن يريدوا فعلها، وفضلًا عن أن يفعلوها، وأقلُّ الناس دينًا وأمقتُهم إلى الله مَن تَرَكَ هذه الواجباتِ، وإن زَهِد في الدنيا جميعِها، وقلَّ أن ترى منهم

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٠١).

من يَحْمَرُّ وجهُه ويُمعِّرُه لله ويَغضبُ لحرماته، ويَبذُل عِرضَه في نصرة دينه، وأصحابُ الكبائرِ أحسنُ حالًا عند الله من هؤلاء»[1].

٣- ذكر الخطأ الذي يستفيد منه الأبناء أمرٌ محمود، مع أن المتعارَف عليه لدى عامة الناس اللجاجةُ وعدمُ الاعتراف، واختلاقُ المعاذير، وهذا من ضَعف الشخصية، وعدمِ الثقة بالنفس.

٤- قال كعب: «لم أكُن قطُّ أقوى ولا أيسَرَ حينَ تَخلَّفتُ عنه» في حديثه عن غناهُ وتوفُّرِ جميع الأسباب له عندما تَخلَّف ردٌّ على المتقاعسين الذين يُعلِّقون العملَ الصالحَ كتَعلُّم العلم أو الدعوة على توفُّر بعض الحاجات، وتيسُّرِ الأحوال، وانفتاحِ الرزق، فيظنون أنّ هذا هو العائقُ الوحيد لهم؛ فكعبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ توفَّر له كلُّ شيء، ومع ذلك لم يَلحق بالجيش، وقد سأل آخرون رسولَ الله ﷺ الرَّاحلةَ وبَكَوا حينما لم يجدوا ما يحملُهم عليه، وأبو ذرٍّ لما قعدت به راحلتُه حَمَل متاعَهُ على ظهره ولَحِق برسول الله ﷺ.

٥- السَّبَّاق لا يتخلّف عن المشاركة في أعمال البرّ والخير، ولا يَرْضَى بالدُّون، بل يتخطَّى العقباتِ، ولا تُقعِدُهُ الأخطاء، وإن تخلَّف أعطى درسًا في تخلُّفه، فهو نفَّاعٌ دائما، وهذا شأنُ صاحب البصيرة يَستفيد من كل حدثٍ يمُرُّ به في بناء نفسه وتزكيتِها.

٦- مِن كمال بصيرة الإنسان نسيانُ أعماله الصالحة وعدمُ رؤيتها؛ فكعبٌ لم يَذكُر مشاهدَهُ كلَّها معَ رَسُول الله ﷺ، ولم يقل: كنتُ وكنتُ،

(١) عدة الصابرين (ص ١٢١).

ونافحتُ بشِعري عن الإسلام والمسلمين، وأنا قد قاتلتُ وفعلتُ وفعلت!. قال ابنُ القيّم: «فإن الله إذا أراد بعبدٍ خيرًا سلَبَ رؤيةَ أعمالِه الحسنة مِن قلبه، والإخبارَ بها من لسانه، وشَغَلَهُ برؤية ذنبه، فلا يزال نُصْبَ عينيه حتى يدخل الجنة، فإنّ ما تُقبِّل من الأعمال رُفِعَ من القلب رؤيتُه ومن اللسان ذِكرُه»[1].

وبعضُ الناس اليومَ يُكثِر من التمدُّح بأعماله ويَنسى نِعَمَ الله عليه فيها، وقد ضعُفَ عن شُكرِها، كمَن يقول: حجَجْتُ كذا مرّة، وشاركتُ بكذا وكذا من أعمال الخير، والأَوْلى أن ينسى أعمالَهُ الصالحةَ، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا تَعُدّوا حسناتِكم فأنا كفيلٌ بأنه لا يَضيعُ شيءٌ منها، ولكن أَحصُوا سيئاتِكُم»[2].

٧- ما لامَ رسولُ ﷺ أحدًا ممن تخلَّف عن غزوة بدرٍ؛ لكون النّفير ليس عامًّا، وبعضُ الناس اليوم يُنحِي باللائمة على أبنائه أو إخوانه عند تخلُّفِهم عن أداء عملٍ يريدُه مع أنه لم يأمُرْهم به أو يعزِمْ عليهم، أو يحدِّدْ شخصًا بعينه يقومُ به، فيغطي فشلَهُ باللّوْم.

٨- ينبغي تركُ اللوم بعد فوات الأوان فيما لا يُمكن تدارُكُه؛ فالنبيُّ ﷺ لم يثرِّب على أحدٍ أو يُؤسِفْه على عدم مشاركته في بدر.

(١) طريق الهجرتين (ص٢٧٠).

(٢) انظر: سنن الدارمي (١/ ٧٩).

لكلّ حالةٍ ما يناسبُها

قَالَ كَعْبٌ: «وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلاَّ وَرَّى بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ، غَزَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ».

١- قال ابنُ القيّم: «ومنها أنّ السّتر والكِتمان إذا تضمّن مفسدةً لم يَجُز»[1].

والبعض يَكتُم قضاياه الخاصّةَ التي يحتاج فيها إلى إعانةٍ سواءٌ كانت القضية اجتماعية، أو صحية، وسواءٌ عَرَض أمرَهُ على عالمٍ ليستفتيَه أو

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٠١).

ليُرشدَه أو صديقٍ لينصَحه أو طبيبٍ ليعالجَه، مع أنّ هذه الأمورَ تتأثّر بما يُكْتَم من المعلومات.

ومن طرائف الأخبار أنّ أعرابيًا عضَّهُ ثعلب، فأتى راقيًا، فقال الراقي: ما عضَّك؟ فقال: كلبٌ، واستحى أن يقول: ثعلبٌ!، فلما ابتدأ بالرُّقية قال: واخلِط بها شيئًا من رُقية الثعالب[1].

٢- في المعاريض مندوحةٌ عن الكذب، وهي الأصلُ والنهج الذي اتّبعه الرسول ﷺ في غزواته، فينبغي للمسلم أن لا يفكر في الكذب، فالشريعةُ -ولله الحمدُ- جاءت بالمعاريض والتورية عند تحقُّق الضرر في التّصريح.

٣- من مَزايا القيادة الناجحة إعطاءُ الأمر حقَّه «فَجَلَّى للمسلمينَ أمْرَهم ليَتأهَّبُوا أُهْبة غَزْوِهم، فأخبرَهم بوجْهِهِ الّذي يريد»؛ فالأمرُ العظيم يحتاج إلى استعدادٍ عظيم، ولا يكفي أن نترك الأمورَ كيف ما اتّفق ونقول: نتوكل على الله؛ فإنّ الأخذَ بالأسباب من التوكُّل.

٤- مخالفةُ المعتاد عند الحاجة من الحُنكة: «ولم يكن رسولُ الله ﷺ يُريدُ غَزْوَةً إلاّ وَرَّى بغيرها، حتّى كانت تلك الغَزوةُ»، فلا يَنبغي أن يَلزَمَ المَرءُ حالةً واحدةً تتحكّم في حياته دون حاجةٍ تدعو إلى ذلك، كمن يقول: نحن لنا سِنُون على هذه الحال، وما نُريد التغيير، ونحن على خير!، فإذا كان يجِدُّ للناس من الأحكام الشرعية بحسب ما يَجِدُّ لهم من القضايا، فكيف بالعادات والأعمالِ الاجتهادية التي تتطلّب مُلاءمةَ الزمان والمكان.

(١) أخبار الحمقى والمغفلين (ص١١٦).

المجتمع تربى على تحمل المسؤولية

قَالَ كَعْبٌ: «وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَثِيرٌ، وَلاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ، يُرِيدُ الدِّيوَانَ، قَالَ كَعْبٌ: فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلاَّ ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللهِ، وَغَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتْ الثِّمَارُ وَالظِّلاَلُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ».

١- عدمُ كتابة الجند مع الكثرة فُرصةٌ للتغيُّب والتخلُّف: «والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثيرٌ، ولا يجمعُهم كتاب حافظٌ».. ولكنّ التربيةَ النبوية أنتجت مجتمعا يفوق تصوراتنا، إذ لم يتغيَّب إلا ثلاثة!، وأمّا الباقون فبين معذورٍ أو منافق.

أهل الضعف كثيرون الذين يَحرِصون على حضور المجامع الضخمة بحيث يُظَنّ بهم الخير، ويَقِلُّون ويتفلَّتون عند العمل الجادّ والتكاليف، يكثُرون عند الطّمَع ويَقِلُّون عند الفزَع، فالتخلُّف يتّضِح وقتَ الشدائد، والمتقاعسون تحتَرِق أوراقُهم في تلك الأوقات، ويندمجون مع السبّاقين في وقتَ الرخاء:

فَما أَكثَرَ الإِخوانَ حينَ تَعدُّهُم وَلَكِنَّهُم في النائِباتِ قَليلُ [1]

٢- من جليل الأعمال استشعارُ مراقبة الله: قال كعب: «فما رجلٌ يريدُ أن يتغيَّبَ إلاّ ظَنَّ أنْ سيَخْفَى له ما لم ينزلْ فيه وحْيُ الله»، وقال جابر: «كنا نعزل والقرآن ينزل..»[2]، وقال عمر: «خَشِيتُ أن يَنزِل فيَّ قرآن»[3].

وفي هذه النصوص تتجلى أهمية ربطِ الناس بمراقبة الله تعالى، وتعاهدِهم الفينةَ بعد الفينة؛ فإن الإيمان يَخْلَق كما يَخْلَق الثوب.

٣- من آثارِ التعلُّق بالدنيا القُعودُ عن عظائم الأمور: قال كعب: «حين طابتْ الثِّمارُ والظِّلالُ، وتجهَّزَ رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطَفِقْتُ أغْدُو لكيْ أتَجهَّزَ معهم فأرجِعُ ولم أقْضِ شيئًا»، وكثيرٌ من الناس يمنعُه من العمل الجادِّ المثمرِ -مع علمه بعظيم نفعِهِ وأثرِه- صُعوبةُ التضحية بالمال، أو الجهد، أو المرتبة، أو الأصحاب..

(١) بيت من الطويل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (ح ٥٢٠٧)، ومسلم (ح ١٤٤٠).
(٣) صحيح البخاري (ح ٤١٧٧).

٤- فإذا كانتِ الظلال والثمار قد أثرت على رجلٍ يُعَدُّ من أفاضلِ الصّحابة، وممن شَهِد العقبة، فكيفَ بغيرِه؟!، ولهذا يَنبغي للمسلم -ولا سيما الداعيةُ إلى الله- الحذرُ والتّوَقّي من مِصْيَدةِ الدّنيا التي تُقعِدُه عن الخير وهو لا يشعر.

حبُّ السلامةِ يَثْني همَّ صاحبه ... عن المعالي ويُغري المرءَ بالكَســـلِ
فإن جنحتَ إليه فاتَّخِذْ نَفَقــًا ... في الأرضِ أو سُلَّمًا في الجوِّ فاعتزلِ[1]

ومن طبيعة الإنسان المتأصلة فيه الاشتغالُ بالنِّعَم عن شُكرِها والاعترافِ بها للمُنعِم، وهكذا كلُّ مَن خلَتْ نفسُه من التزكية والتربية نسي المتفضِّلَ عليه والمربيَ له بالنِّعم، وأعرض عن ذكرِه، وبارَزَهُ بالمعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[3].

٥- التغلب على الشهوات والملذات من أعظم أسباب بُلوغ أعالي الدرجات: «حين طابتِ الثِّمارُ والظِّلالُ، وَتَجَهَّزَ رسولُ الله ﷺ والمسلمون معه» فإذا خلا المرءُ من الأعذار النفسية أصبح على أُهْبة

(١) البيتان من بحر البسيط، للحسين بن علي الطغرائي، من لاميته المشهورة بلامية العجم.
(٢) سورة الإسراء: ٨٣.
(٣) سورة يونس: ١٢.

الاستعداد لأيِّ عملٍ في خدمة دينه؛ فينبغي الحذرُ من وساوِسِ الشيطان فإنه يَشَمُّ القلوبَ فينظرُ ما تُحبّ، فيضخِّمُ الشيءَ القليل حتى يراه الإنسانُ عظيمًا.

في التسويف تضييعٌ للفُرَص

قَالَ كَعْبٌ: «فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، فَقُلْتُ: أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ، وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ».

١- القدرات والإمكانات ليست وحدَها مؤدِّيةً إلى قيام الأعمال الكبيرة ما لم تَصحَبْها هِمَمٌ عالية، فإمكانات كعبٍ أكثرُ من إمكانات

كثيرٍ من الصحابة، ومع ذلك لم يخرُج مع النبي ﷺ بل سَوَّف الخروجَ حتى تفارَط الجيش.

فالأعمالُ الكبيرة تَعتمد على الهممِ أكثرَ من اعتمادها على الإمكانات، بل إنّ الهممَ تُوجِدُ الإمكانات.

٢- التّسويفُ والتأجيل سببٌ في الانقطاع عن تحقيق فرص المسابقة: «أتَجهَّزُ بعدَهُ بيوم أو يومين ثمّ ألحقُهم، فغدَوْتُ بعد أن فصَلُوا لأتَجهَّزَ فرجعْتُ ولم أقْضِ شيئًا، ثمّ غدَوْتُ ثُمّ رجعْتُ ولم أقْضِ شيئًا، فلم يَزَلْ بي حتّى أسرَعُوا وتفارَط الغَزْوُ، وهَمَمتُ أن أرتَحِل فأُدرِكَهُم».

قال الحسن البَصريّ: «أحذِّرُكم (سوف)».

والتسويف يجعلُك دائما في الأزمات؛ لأنك تُؤخِّر الأمر حتى تَشتدَّ الحاجةُ إليه فتضطر إلى عَمَلِه بأيّ أسلوبٍ كان!، وأسوَأُ حالًا مِن ذلك مَن يُؤدِّي به التسويفُ إلى ترك العمل بالكليّة، أو فواتِ وقته. وكثيرٌ من الناس اليومَ يُهمِل واجباتِه ولا يُعطيها حقَّها، فلا يَهتمُّ -مثلًا- بخُطبة الجمعة إلا يومَها، ولا بالبحوث العلمية إلا وقتَ تسليمِها، ولا بالدّروس إلا في يومِ إلقائها، ولا بتربية الأولاد إلا عند المعاناةِ من مُشكلاتهم.

٣- كان عند كعب رضي الله عنه من العلم والمعرفة والرغبة ما حَمَلَهُ على الهمّ بالجَهَاز، فلو تكامَلَتْ إرادتُه لتمكّنَ من اللُّحوق بالنبيِّ ﷺ قبلَ أن يَرجع، ولكنّ قَدَرَ الله فوقَ ذلك، وكان في ذلك من الخير العظيم والدروس الكبيرة التي استفادتها الأمة الشيءُ الكثير، فرضي الله عنه

وأرضاه. والعملُ السليم يَمُرُّ بالمعرفة ثم الإرادة ثم العزيمة، فإذا لم تَقْوَ العزيمة تعطّلت الإرادة ..وهكذا، فمتى تكاملت هذه العناصر تحقّق الهدف بعد توفيق الله.

٤- قال ابنُ القيّم: «إنّ الرجل إذا حضرت له فرصةُ القربة والطاعةِ فالحزمُ كلُّ الحزم في انتهازها، والمبادرةِ إليها، والعجزُ في تأخيرها، والتسويفُ بها، ولا سيّما إذا لم يَثِقْ بقدرته وتمكُّنه من أسباب تحصيلها؛ فإنّ العزائمَ والهمَمَ سريعةُ الانتقاض قلّما تَثبُت، والله سبحانه يُعاقبُ مَن فَتَحَ له بابًا من الخيرِ فلم يَنتهزْه = بأن يَحُولَ بين قلبه وإرادته؛ فلا يُمَكِّنَهُ بعدُ مِن إرادته؛ عقوبةً له، فمن لم يستجب لله ورسوله إذا دعاه، حال بينه وبين قلبه وإرادته، فلا يُمْكِنُه الاستجابةُ بعدَ ذلك.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾[1]، وقد بيّن الله سبحانه هذا في قوله: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[3]. وقال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾[4]، وهو كثير في القرآن»[5].

(١) سورة الأنفال: ٢٤.
(٢) سورة الأنعام: ١١٠.
(٣) سورة الصف: ٥.
(٤) سورة التوبة: ١١٥.
(٥) زاد المعاد (٣/ ٥٠١).

٥- لا أحدَ يَعرِف ما قدّر الله له، فلا يجوزُ تركُ العمل احتجاجًا بالقدر، وأمّا بعد فوات الأمر وانقضائه وعدمِ القدرة على تدارُكه فللمرء أن يعبِّر بأنه لم يُقَدَّر له، كما قال كعب رضي الله عنه، وكذلك لا يجوز احتجاجُ الإنسان بالقدر على ذنوبه ومعاصيه وتقاعُسِه عن الخير والعمل الصالح.

القلبُ الحيّ لا يَأنَس مع المتخاذِلين

قَالَ كَعْبٌ: «فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَطُفْتُ فِيهِمْ أَحْزَنَنِي أَنِّي لاَ أَرَى إِلاَّ رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ مِنْ الضُّعَفَاءِ».

١- صاحبُ الهمّة العالية - وإن أخطأَ أو ضعُف - لا يرضَى أن يكون مع المتخلِّفين: «أحزَنني أنّي لا أرى إلاّ رجلًا مغموصًا عليه النِّفاقُ..». وبعضُ من ينتسب إلى علمٍ أو أدبٍ أو دعوةٍ إذا ضعُف وتخلَّف عن الخير سعى إلى تكوين «مجموعات» ممن يتّصفون بصفات الضعف والتخلِّي عن الخير، فيتحوَّل تحت ظروفِ التسويغ إلى شخصٍ يعيش على هامش الحياة.

قد هيّؤُوك لأمرٍ لو فَطِنت له فارْبأْ بنفسك أن ترعَى مع الهمل[1]

٢- من فِراسة كعب معرفتُه بأهلِ النّفاق، فالمسلم ينبغي أن يتحلى بالوَعْي والفهم الذي يُخَوِّلُهُ التَّمييز بين المنافق والمؤمن، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[2]، ومن البصيرة معرفة حال الناس دون غفلة أو إفراط في التَّصنيف.

٣- في القصة قوّةُ التربية النبوية؛ إذ لم يتخلّف إلا صنفان من المجتمع: «مغموصًا عليه النِّفاقُ أو رجلًا ممن عَذَرَ الله من الضُّعفاء».

٤- الحزنُ والتوجُّع لأحوال المسلمين دونَ عملٍ أو مشاركةٍ لا يقدِّم شيئا، والبكاء في البيوت لا يزرع تعاطُفَ الناس مع القضية. فلو جلس كعبٌ حزينا في بيته لم يتعاطَفِ الناسُ معه مثلَ هذا التعاطفِ الكبير. قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية: «وكثيرٌ من الناس إذا رأى المنكَر، أو تغيُّرَ كثيرٍ من أحوال الإسلام جَزِع وكَلَّ وناح كما ينوحُ أهلُ المصائب!، وهو منهيٌّ عن هذا، بل هو مأمورٌ بالصبر والتوكُّل والثباتِ على دين الإسلام، وأن يؤمن بأنّ الله مع الذين اتقوا والذين هُم محسنون، وأنّ العاقبة للتقوى، وأنّ ما يُصيبه فهو بذنوبه فليصبر؛ إنّ وعد الله حقٌّ، وليستغفر لذنبه، وليسبح بحمد ربِّه بالعشي والإبكار...»[3]، هذا الحزنُ يَزيد فيه الشيطان، ويُشعِر صاحبَهُ أنّه أدى شيئًا مّا فيرضَى به ويَقعُدُ عن العمل.

(١) البيت من بحر البسيط، للحسين بن علي الطغرائي من لاميته المشهورة بلامية العجم.

(٢) سورة الأنعام: ٥٥.

(٣) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٩٥).

٥- يقول كعبٌ: «فكنتُ إذا خرجتُ في الناس بعدَ خُروج رسولِ الله ﷺ فطُفتُ فيهم أحزَنَني»، قد يتخلّف الإنسان عن عملِ خيرٍ رغبةً في توفير الراحة لنفسه، فيعاقَبُ بفقدانها إما بالحزن وضيقِ الصّدر، أو غيرِهما من الأعراض.

تَأَخَّرتُ أَستَبقي الحَياةَ فَلَم أَجِد لِنَفسي حَياةً مِثلَ أَن أَتَقَدَّما[1]

(١) بيت من الطويل، للحصين بن الحمام الفَزاريّ.

صاحب المواقف يُفتقَد

قَالَ كَعْبٌ: «وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: مَا فَعَلَ كَعْبٌ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ».

١- منزلةُ كعب وشُهرتُه دليلٌ على صدق إيمانه، وعظيم بلائه، والعملُ الصالح يُشْهِرُ صاحبَهُ فيُفتَقدُ!، بخلاف من عمل ليَشْتَهِرَ؛ فإنَّ مَن بحث عن الشهرة والذكر بَعُد عنه، ومن أعرض عنها أسرعت إليه، وقد يحصل على الشهرة المزيَّفَة متعرض لها بعد تعب وذلة.

٢- بعضُ الناس إذا غاب رَسْمُه غاب اسمُه، بل ربّما نُسِي اسمُهُ وهو حيٌّ!، لكنِ العلماءُ والدّعاة والمصلحون الذين يخالطونَ الناس، ويَحمِلون همومَهم يَبْقَون أحياءً في قلوبِ الناس وإن كانوا أمواتًا منذُ مئات السنين:

يا رُبَّ حيٍّ رُخامُ القبر مسكنُه ورُبَّ ميْتٍ على أقدامه انتصبا [1]

٣- التربيةُ النبوية شَمَلت ظلالُ عطفِها كلَّ الصحابة، وكان كلُّ واحد منهم ينالُ نصيبَهُ من اهتمام رسولِ الله ﷺ، ورسولُ الله ﷺ عارفٌ بهم وبأحوالهم، ولهذا يَفتقِدُ الشخصَ الواحدَ من بين جيش كبير، وليس سؤالُ رسولِ الله ﷺ عن كعبٍ لحاجته إليه؛ فليس في قلّةٍ من العدَد؛ حيثُ حَظِي بصحبته في هذه الغزوة أصحابه رضي الله عنهم.

كثيرٌ من أهل الفضل لا يَعرِفون من طلاّبهم أو محبيهم إلا عددًا قليلًا الواحد والاثنين، ويَزهدون في البقية، مع أن تَفقُّد الأصحاب والتلاميذ من أعظم أسباب الارتقاء بهم في بنائهم العلميّ والتربويّ، وإن سألَ أحدٌ من أَهلِ العلم عن تلاميذه فغالبًا ما يكون عند الحاجة إليه!، وتجد بعضَ المشتركين في مجالس العلم أو العمل الخيريّ لا يعرفون الغائبَ منهم!.

٤- خَصّ رسولُ الله ﷺ قومَ كعب بالسؤال عنه؛ لأنهم أعرَفُ الناس به، فكعبٌ من بني سلِمة، ومعاذٌ من أبناء عمومته. فينبغي أن يُسألَ عن الرجل أقربُ الناس إليه وأكثرُهم به معرفةً بُعْدًا عن

(١) بيت من البسيط، منسوبٌ لنزار قباني.

الغيبة، وقطعًا للقالة في الرجل، وحفظًا للوقت، وتسهيلاً للوصول إلى المقصود.

٥- عيَّن كعبٌ وأبْهَم، فذكر لولده أنّ رجلًا من قومه نال منه، حتى لا تذهب الأفكار والظنون إلى غيرِهم، وأخفى اسمَهُ حتى لا يُوغِر الصدورَ عليه، وصرَّح باسم مُعاذٍ لجميل فعله؛ فإنه يحسن إذا تحدثْتَ عن الحسنات أن تنسُبها لأصحابها، وأما إذا تحدثتَ عن الأخطاءِ فأبْهِمْ؛ إذ المقصودُ هو التنبيهُ على الخطإ، ومن معالي الأخلاق الصفحُ عن الأخ إذا صدر منه أمرٌ ظلمك فيه، فإبهامُ الذامّ وإظهارُ المادح سمةٌ أهلِ السنة، ولهذا اشتهر عند أهل السنة ذكرُ المناقب، ولم تُذكَر المثالب إلا في حال خدمة الدين، مثل كتُب الجرح والتعديل. قال ابنُ القيّم: «ومنها جوازُ الطّعن في الرّجل بما يغلب على اجتهادِ الطاعن حميّةً، أو ذبًّا عن الله ورسوله، ومن هذا طعنُ أهل الحديث فيمن طعنوا فيه مِن الرواة، ومن هذا طعنُ ورَثة الأنبياء وأهلِ السنة في أهل الأهواء والبدع لله لا لحظوظهم وأغراضهم»[1]. وهذا الرجلُ الطاعن في كعب من قومه فلا يتّهم بإرادةِ تنقُّصِه، وإنما حمله على هذا حُبُّهُ لكعبٍ وغَيرتُهُ لله.

٦- قال ابنُ القيّم ذاكراً ما يُفاد من حديث كعب: «ومنها جوازُ الردِّ على الطاعن إذا غلب على ظنِّ الرادّ أنه وَهِم وغَلِط، كما قال مُعاذٌ للذي طعَن في كعب: بئس ما قلتَ، والله يا رسولَ الله ما علمنا عليه إلا

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٠١).

خيرًا، ولم يُنكر رسولُ الله ﷺ على واحد منهما»[1]. و في هذا بيانُ أهمية الذبّ عن عِرْضِ المسلم.

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٠١).

التأنّي في اتّخاذ القرارات سَداد

قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِك: «فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي، وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِه غَدًا، وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ قَادِمًا».

١- ينبغي للمرء ألاّ يتّخذَ قراراً حالَ الخوف؛ لأنّ الشيطان يستغل هذه الحالَ باقتراحاته المُرْدِية. وهنا ألقى الشيطانُ عليه أن يكذبَ محاولاً أن يستغِلّ ضعفَه.

ومثلُه الفرحُ والغضَب الشديدان، كالحزنِ الشديد، وقد خدع الشيطانُ قومَ نوحٍ في عبادتهم للأصنام، حين حزِنوا لوفاةِ علمائهم، فأوحَى إليهم أن يُصوِّروهم ليتذكّروهم ويتّعظوا بهم، فلما انقرض ذلك الجيلُ سوَّل للجيل التالي عبادتَهم.

وفي واقعنا تجدُ كثيراً من الناس إذا وقع في خطإٍ أوّلُ ما يتبادَر إلى ذهنه ويُلقي الشيطانُ على لسانه هو الكذب.

٢- مِن فضلِ الله على عبده حمايتُه عبدَهُ المؤمنَ من مكايد الشيطان ودسائسه، فهذا الصحابيّ كاد الشيطانُ أن يُوقِعَه لولا أن تَداركَه الرحمن برحمته ولا يَنبغي للمرءِ أن يتمنّى البلاءَ أو يتعرَّضَ له، أو يَشْمَتَ بأهل البلاء؛ لأنّه لا يَدري ما يُقضَى له أيَصبرُ أم يَفتتن؟، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

٣- بعد انتهاءِ الأعمال يتحسَّر القاعدون على تقصيرِهم في الدنيا والآخرة، هذا ممن وُجِدَ في قلبه إيمان، وأما غيرُهم فما لجُرْحٍ بميّتٍ إيلام.

٤- المعصيةُ تجلب أخواتِهَا، قال بعض السلف: «إذا رأيتَ من يعملُ السيئةَ فاعلم أنّ لها أخواتٍ، ومَن يعمل الحسنة فاعلم أنّ لها أخوات»[2]، وهكذا كعبٌ كاد أن يَقع في معصية الكذب لولا أنّ الله وقاه منها وحماه بفضلِه وبما قدّم من صالح، ولهذا يَنبغي قطعُ سلسلة الذنوب بحاجزِ التوبة والحسنات الكبار.

(١) سورة النور: ٢١.

(٢) تفسير النسفي (١/ ٢٤٧).

٥- مما ينبغي معرفةُ أهلِ الرأي واستشارتُهم، وعدمُ الاستبداد بالرأي، قال بعضُ البلغاء: «مِن حقّ العاقل أن يُضيف إلى رأيه آراءَ العُقلاء، ويجمعَ إلى عقلِه عقولَ الحكماء؛ فالرأيُ الفذُّ ربما زلّ، والعقل الفردُ ربما ضلّ»[1].

وكثيرٌ من الناس اليومَ لا يُفكِّر في الاستشارة، وبعضُهم يتصوّر أنّ الاستشارة نقص!، مع أنها من الكمال ورَجاحة العقل، وكلما كان الإنسانُ أكثرَ رشدًا كان أكثرَ استشارة، وكلما ضعُف عقلُهُ استقلَّ برأيه، ولم يطإِ الأرضَ أحدٌ أرشدَ من رسول الله ﷺ وكان أكثرَ الناس استشارةً، ولم تَعرِف الأمةُ أرجحَ عقلًا بعد نبيها ﷺ من الخلفاء الراشدين وكانوا يُكثِرون من الاستشارة.

٦- من رحمة الله بكعبِ بنِ مالك أنْ وفّقَه وأزاحَ عنه الباطل، وعرَّفَهُ أنه لا ينجو من سُخْط رسولِ الله ﷺ بالكذب، فمن أعظم الأرباح النجاةُ من المعاصي، قال الحسن في أهل المعاصي: «هانُوا على الله فعَصَوْه، ولو أحبّهُم لرحِمَهُم».

وبعضُ الناس اليوم لا يُفكّرون في هذه النعمة الكبيرة التي ينعم الله بها على من شاء مِن عباده فيُوفِّقَهُم إلى ترك المعاصي، ولهذا قلّما تسمعُ من الناس مَن يقول: هنيئا لفلان نجا من الربا، أو تَرَكَ المعصية الفلانية، وإنّما التهنئة بربْحِ الأموال أيّاً كان طريقُها.

٧- الباقياتُ الصالحات من أسباب الرحمة؛ لأنّ الله لا يُضيع أجرَ

(١) أدب الدنيا والدّين ص ٢٧٣.

مَن أحسَنَ عملًا، وحُسن الخاتمة يحتاج إلى كثرةِ الأعمال الصالحة، فلعلَّ من أسباب نجاة كعبٍ ما قدَّمه من الخير، وخدمةِ الإسلام.

وفي المقابل تُعرَض الفتنُ على كثيرين، فيُفتَنون ويَنكِصون على أعقابهم؛ لأنهم لم يقدِّموا من الخير والحسنات ما يكون سببًا لحفظهم.

اختلاقُ الأعذارِ سلاحُ المتخاذِلين

قَالَ كَعْبٌ: «وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللهِ».

١- تقديمُ الصلاةِ على كلِّ عملٍ دليلٌ على أهميّة الصلاة وعِظَم شأنها عند رسول الله ﷺ، وبدؤُه بالمسجد بيانٌ لجليلِ مكانته وعظيم مركزه وموقعه لدى الأمة، والبدءُ بالطاعة حالَ الوصول إلى البلد شكرٌ لله تعالى.

وقد تجد من يتخلّفُ عن صلاة الفريضة في المسجد حينَ وُصولِه إلى بلدِه بحُجة التّعَب من السفر!.

٢- ينبغي لأهلِ العالم أن يَعذِرُوه، ولا يطلبوا منه ما يُطلَب من عامّة الناس؛ لأن العالمَ ليس لهم وحدَهُم، بل مصالحُ الناس متعلقةٌ به، وفي مساعدتهم له ووقوفِهم معه مشاركةٌ له في أَجرِه.

٣- ينبغي للعالم الربانيّ والأميرِ عند رجوعه من سفَرِ النظرُ في مصالح الناس، والبُروزُ لهم في مكانٍ عامّ؛ فالرسولُ ﷺ أولُ ما بدأ به المسجدُ، ثمّ جلس للناس، ولم يَذهب إلى أيٍّ من بيوته.

فالذي ينبغي للعالم والداعي إلى الله أن يُخصِّص وقتًا معلومًا يجلسُ فيه لعامّة الناس.

٤- تدَبَّرْ هذه الرحلةَ الشاقةَ للرسول ﷺ : سفرٌ على بعيرٍ وشدّةُ حرٍّ، وبُعدُ مسافةٍ، ومع ذلك لم يأخُذْ ﷺ راحةً، وكان هذا دأبُهُ ﷺ منذُ البعثةِ، وهكذا كان دَيْدَنُ مَن سار على نَهْجِه، قال عمرُ بنُ عبدِ العزيز لبعضِ أصحابه القُدماء لما قالوا: لو تفرَّغتَ لنا؟!، قال: «وأين الفراغُ، ذهَبَ الفراغُ، فلا فراغَ إلا عند الله»[(١)].

فالمؤمنُ العامل لله راحتُه وفراغُهُ خلوةٌ بربه.

٥- أهلُ النفاق ذنبُهُم أعظمُ من المعاتَبة، فإذا صلَح أمرُ أهل الإيمان لم يضرَّهُم كيدُ المنافقين: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾[(٢)].

(١) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٩٧).

(٢) سورة آل عمران: ١٢٠.

٦- سلاحُ المتخلّفين عن مشاهد الخير والعمل الصالح الأعذارُ المدعُومة بالأيمان، فلكلِّ تقصيرٍ عذرٌ.

٧- الواجبُ أخذُ الناس بالظّاهر، وعدمُ الدّخولِ في النيّات والمقاصد؛ فمعَ أنّ الوحيَ كان يَنزِلُ إلا أنّ النبيَّ ﷺ حَكَمَ بظواهرِ المنافقين.

وإنك لَتعجَبُ اليومَ من مُسارعة بعضِ النّاسِ إلى الطّعْن في مقاصد الناس ونياتهم!.

٨- في قلة المتخلّفين عن الغزوة معَ دواعي التخلّفِ دلالةٌ على عِظَمِ التربية النبوية ؛ إذ لم تَزِدْ نسبةُ التخلُّف عن اثنين من الألف تقريبًا ، من جميع القادِرين على الجهاد من أفراد الأمة!.

كم من الناس يحضُرُ ميادينَ الخير والدعوةِ والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر؟

التّبِعاتُ على قَدْرِ الإمكانات

قَالَ كَعْبٌ: «فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَد ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، إِنِّي وَاللهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللهِ، لاَ وَاللهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ».

١- منزلةُ الإنسان وأسبقيتُهُ لا تمنعُ من معاتبته.

٢- أوّلُ العلاجِ استفهامُ المخطئ: «ما خلَّفك؟». وكان من هدي النبي ﷺ مع من أخطأ أن يبدأ بالاستفهام كما قال لحاطِب: «يا حاطبُ ما هذا؟»[(١)]، وقال للرّجلَين: (مامنعكما أن تُصلِّيا معنا؟)[(٢)].

٣- المحاسبة والتّبِعات على قَدْرِ الإمكانات: «ألم تكن ابتعتَ ظهرك؟»، فالواجبُ على العامة شيءٌ وعلى العلماء شيءٌ آخر... قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[(٤)]، وكثيرٌ من الناس يستدلُّون بهذه الآيات وهي عليهم لا لهم؛ فالمراد بالآية استنفادُ جميع الطاقات والقدرات، وبذلُ كلّ الوسع في عمل الطاعات وفعلِ الخيرات.

٤- أظهرَ كعبٌ من إمكاناته ما يُناسب المقام: «ولقد أعطيت جدلاً»؛ فلم يذكُر أنه شاعرٌ؛ لعدمِ المناسبة، وبعض الناس يتمدح ببعض الصفات في مقام لا يناسبها.

٥- عرَفَ كعبٌ أنَّ إرضاءَ الرَّسول الله ﷺ ظاهرًا غيرُ كاف إذا لم يرض الله عنه، فقد حرَصَ على إرضاء الله جل وعلا، والمنافقون

---

(١) أخرجه البخاري (ح ٣٠٠٧)، ومسلم (ح ٢٤٩٤)، عن عليٍّ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الإمام احمد (ح ١٧٤٧٤)، وأبو داود (ح ٥٧٥)، وغيرهما، عن يزيد بن الأسود العامريّ رضي الله عنه.

(٣) سورة التغابن: ١٧.

(٤) سورة البقرة: ٢٨٦.

حرَصُوا على الاعتذار إلى رسول الله ﷺ كي يرضى عنهم، ففاز كعبٌ وخسر المنافقون: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[1]. وبعضُ الغلاة من أهل البدع يَعصُون الله تعالى ورسولَه ﷺ ويزعُمون أنّ محبةَ النبيّ ﷺ تكفي، فسيعلمون غداً أنهم قد أسخطوا اللهَ ورسولَه ﷺ . وبعض الناس يرقُب ما يُريدُ الناسُ ويَعمل به، ويطّرِحُ ما يُرضي الله تعالى ولا يُبالي ، حتى أصبحَتْ حياةُ الكثيرين من أجل الناس، فإن لبس فمن أجلِ الناس!، وإن رَكِب أو سكَن فمن أجل الناس!..

٦- تحقيقُ الإيمان بأسماء الله وصفاته من أعظم أسباب النجاة وقتَ الشدائد: «لَيُوشِكَنَّ الله أَنْ يُسْخِطَكَ عَلِيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ الله»، فقد استفادَ كعبٌ عمليًا من معرفته بصفات الله جلّ وعلا، وإنّك لتجِدُ كثيراً من الناس اليومَ معرفتُه بأسماء الله وصفاته معرفةٌ علميّة نظرية، يعلم أنّ الله يراهُ ولا يَنتهي عن معاصيه!، ويعلمُ أن الله يسمعُه ولا يحفظ لسانَهُ عما يُغْضِبُ ربَّهُ!.

٧- لم يختصر في ذكر خطئه: « لاَ وَالله مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْر، وَالله مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ»، مع أنّه يقفُ بين يدي أعظمِ إنسانٍ، وأحبِّ شخص إليه، فقد كان واضحًا في الاعتراف، بل قطع على نفسه جميعَ الأعذارِ التي يُمكن أن يَصوغَها الشيطان له: «ما

(١) سورة التوبة: ٩٦.

كان لي من عذرٍ»، والبعضُ قد يتوقّف عن قولِ كلمة حقٍّ حياءً من كبير أو عظيم!.

٨- لم يتعلَّقْ بالحِيَل والمعاذير: (ما زلتُ أغدُو لأتجهَّز) بمعنى أنه لم يعتذِرْ بكونه كان يحُاوَلُ التجهُّزَ ولم يَغِبْ عن باله شأنُ الغزوة، وأنه دائما يجُاهد نفسَهُ على ذلك.

وشأنُ بعضِ المتخلِّفين عن عملِ خيرٍ وطاعة أن يعتذروا بما ليس عذرا، فيقول: حاولتُ، كان الأمرُ في نفسي، وكان في نيّتي أن أفعل، وأنا معكُم بقلبي.. ويَعتبر هذا عُذرًا في التخلُّف عن العمل!.

٩- الصّدقُ والوضوح في الاعتراف بالخطإ مفصّلًا واضحًا يعني الشجاعةَ والثقةَ بالنفس، والتفلُّتُ والاعتذارُ هو تغطيةٌ لضعفِ الشّخصية باختلاق الأعذارِ والمسوِّغات؛ ففي الاعتراف بالحقّ توفيرٌ للوقت والفكرِ والصُّحبة، وفي الإنكار والمجادلة خسارةٌ بتضييع الوقت وشَغْل الفكر بالكذب والبحثِ عن المعاذير، واعتذارك بما يعلم أصحابك خلافه يسبب فساد الوداد وفقد الأحباب.

فكعبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اعترف بكلِّ مُلابَسات الأمر حتّى ما دار في نفسه: «حتى أردتُ أن أرجع فأُكَذِّبَ نفسي»، وهذا سرٌّ بينه وبين نفسه، ومع ذلك كشَفَهُ لإفادة الآخَرين والتَّحدُّثِ بنعمة الله عليه.

هذا حديثُ نفسٍ باح به، فما بالُنا لا نعترف بالأخطاء الظَّاهرة؟، وكيف نُربِّي أبناءَنا ونُوصِل إليهم خُلاصةَ تجارِبِنا إذا لم تكن لدينا مثلُ هذه الشجاعة؟.

١٠- شأنُ التخلُّف عن الجهاد والغزوِ الواجبِ شأنٌ كبيرٌ، وخطرُهُ عظيمٌ، وأمرُه شديد، حتى إنّ رسولَ الله ﷺ لم يُصدِر فيه حُكماً، بل انتظر فيه حُكْمَ الله، وفيه بيانُ خُطُورة التخلُّف عن أعمالِ البرِّ والخير ويحتج البعض بفهمه المخطئ لقول الله تعالى: ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾، مع أنه لو قرأ ما قبلَها وما بعدَها لَعَلِم مَن هو الذي ليس عليه لومٌ ولا سبيلٌ.

فاللهُ تعالى صدَّرَ الآياتِ من سورة التوبة بقوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

ومفهومُ الآية أنّ غيرَ هؤلاء -الذين ذَكَر الله تعالى- يَنالهُم الحرج، ولم يَنف الله الحرجَ عن الضَّعيف والمريض والفقير- مع أنّ أعذارَهم ظاهرةٌ وليست باختيارهم - إلا بعد أن يُؤَدُّوا ما عليهم مما لا يُؤثِّر فيه الضعفُ والمرَضُ والفقرُ، مثل بذلِ الرّأي والمشورة، والنُّصح، وتقديمِ الخبرات والتَّجارِب للمسلمين.

ثم قال تعالى في الآية التي بعدها: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾[2]، وهذا الفريقُ الرابعُ ممن رُفع عنهم الحرجُ، وهم الذين لم يجدوا الراحلةَ من أجل المشاركة في الجهاد

(١) سورة التوبة: ٩١.

(٢) سورة التوبة: ٩٢.

وبذلوا أسبابَ الحصول عليها حتى المسألة وهي أشقُّ شئ عليهم، ولَمَّا اعتذر إليهم الرسول ﷺ بعدم قُدرته على حَمْلِهم لم يفرحوا ويقولوا: قد أدَّينا الذي علينا، بل حَزِنوا وبَكَوا على عدم القدرة وعدمِ وجود مَن يُساعدهم على المشاركة في الخير.

فهؤلاء هُم المحسنون الذين ليس عليهم سبيل، أما القادرُ والمستطيعُ والذي يخُلُّ بعمله أو لا يُكمِلُهُ ولا يُتِمُّه فهذا ليس من المحسنين.

١١- أَخْذُ الأحكام إنّما يكونُ عن الشّرع، لا عن الرأي والهوَى والبيئة والناس: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ»، ويخطئ بعضُ الناس في إصدارِ أحكام في المواقفِ والحوادث دُون الرُّجوع إلى الشرع والبحث في المسألة، فتجدُ مَن يقول: لا بأس، هذه مصلحةٌ!، أو: هذه ضرورةٌ!، أو: كلُّ الناس يَفعلُ هذا!، وإنّما الذي يحدد المصلحةَ هو الشرعُ لا الأذواق، وبعضُ الناس يَقعُ في الإثم وهو لا يَشعُر، فيقول مثلًا: لو كان لي أمرٌ لمنعتُ كذا، ولَفعلتُ كذا، مما يكون فيه تضييقٌ على المسلمين، وهو لم يَعرِضْ رأيَهُ على الشّرع، و يَتحَرَّ ما يرضي الله ، فبدلَ أن يَحْمَدَ اللهَ على العافية من المسؤولية يتحَمَّلُ الوِزْرَ في موطِنٍ كان في غنىً عنه.

التأسِّي بالصّالحين يُخفِّفُ الأثقال

قَالَ كَعْبٌ: «فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ، فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي: وَاللهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لاَ تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَكَ، فَوَاللهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، رَجُلاَنِ قَالاَ مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ وَهِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي».

١- مِن فِقْهِ الرَّجُل مَعرفتُهُ بخُطورة الذّنب، ومَن تساهلَ بالذَّنب اتِّكالا على التوبة قد يُحرَمُ بسببه التوبةَ، قال سُفيان: «تَرْكُ الذّنب أيْسَرُ من طلَبِ التّوبة»[1]، يقول بعضُهم: أفعَلُ الذّنبَ ثُمّ أستغفرُ وأتوب!، وما يُدريك؟ فقد لا تُوفَّقُ للتوبة!، وقد لا تُقبل توبَتُك إن تُبتَ!. ويقولُ بعضُهم: دعا لي الشيخُ فلان!، أو: استغفَرَ لي الإمام!، فهذا كعبٌ لم يَرَ استغفارَ رسول الله ﷺ يمحُو عنه ذنبَهُ إذا كذَبَ عليه؛ مع أنّ استغفارَ رسول الله ﷺ أعظمُ استغفار، وهذا من إجلالِ رسول الله ﷺ وتعظيمِه، وعلوِّ منزلته ﷺ في القلوب والنفوس، فلا يُكذَبُ عليه ويُتَّخذَ استغفارُه حجّة. ولم يَضعُف مع قيام قومه معه وضَغطِهم عليه ليعُودَ ويُكذِّبَ نفسَه اتِّكالاً على استغفارِ رسول الله ﷺ .

٢- وفيها عِظَمُ تأثيرِ الأقارب والجلساء وقوّة ضغطِهم على مفاهيم الإنسان، لذلك يجبُ على المسلم أن يختار جُلساءَهُ، وأن يُراجِع مبادِئَهُ ويؤصِّلَها حتى لا يتراجَعَ تحت ضَغْط الواقع، فكم من تاركٍ للخير بسبب هذا التراجع.

٣- مما يخفف ألم المصيبة ومشقة تحمل أعباء الدعوة والإصلاح التأسّي بمشاركة الصالحين؛ فينبغي لمن شقَّ عليه عملٌ أن يتذكر أنه أسوَة؛ إذ قد يضعُف بتراجُعه خلقٌ كثير، ولهذا لمّا اشتّد الأمرُ بالإمام أحمدَ وطلب منه بعضُ محبِّيه أن يُجيبَ في الفتنة، قال له أحمد: انظُر مَن

(١) حلية الأولياء (٧/ ٢٤).

خارجَ القصر، فوجد أعداداً كبيرةً معَهُم المحابرُ والدّفاتر ينتظرونَ جوابَ الإمامِ أحمد!.

وَلَولا كَثرَةُ الباكينَ حَولـي عَلى إخوانِهِم لَقَتَلتُ نَفسي
وَما يَبكونَ مِثلَ أَخي وَلَكِن أُعَزّي النَفسَ عَنهُ بِالتَأَسي[1]

التأسِّي بالصّالحين بعد مَعرفة حالِهم: «فذَكَرُوا لي رجُلين صالحين»، فينبغي للمسلم أن ينظُر مَن يَقتدي به ويَصدُر عنه في العلم والعمل، لا أن يأخذ دينَه من كل جهة!.

(١) من بحر الوافر، للشاعرة تماضر بنت عمرو الشهيرة بالخنساء ﵂، من قصيدة ترثي بها أخاها.

التربية النبويّة كاملة

قَالَ كَعْبٌ: «وَنَهَى رَسُولُ الله ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلاَمِنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلاَةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلاَ يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ الله ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلاَمِ عَلَيَّ أَمْ لاَ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاَتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي».

١- يَنبغي للمسلم أن يَرضى بالعُقوبات التي تُصيبُه بسبب ذُنوبه، ويَكتسب منها دُروسًا في التحمُّل والصّبر، ويعلم أنّ عاقبتَها إلى خير؛ ومن بعد النظر أن لا يهتم للأذى الحاصل الآن، وإنما ينظر إلى المصلحة الكبيرة المتحقِّقة من ذلك.

وقصيرُ النظَر يَستعجِل الحكم على الأشياء بالنّفع أو الضّرَر دون النظر في العواقب ومآلات الأمور.

٢- استعمالُ الهجْرِ يكون عند الحاجة إليه إذا توفَّرت شروطُه وانتفت موانعُه، وهُو من أعظم العقوبات. قال ابنُ القيّم: «هِجْرانُ الإمام والعالم والمطاع لمن فعل ما يَستوجب العَتْبَ، ويكون هِجْرانُه دواءً له؛ بحيث لا يَضعُف عن حُصُول الشفاء به، ولا يَزيد في الكَميّة والكيفيّة عليه فيُهلِكَه»[1]؛ إذ المرادُ تأديبُهُ لا تعذيبُه، ومقصودُ الشّرع الهدايةُ لا النّكاية. فالهجر المرادُ منه الإصلاحُ لا العداوةُ والكُرْه، فإذا هجَرْتَ شخصًا فينبغي أن يكون في قلبك رحمةٌ له وشفقةٌ عليه؛ فالنبي ﷺ مع هجرِه ومقاطعته كعباً لم يهجُرْهُ من كل وجه، بل كان إذا أقبَلَ على صلاته نظَرَ إليه نظَرَ رحمةٍ وشفقة.

٣- المعاناةُ قد تسبقُ قَبُولَ التوبة: لقد ذكَر الله تعالى في كتابه أنّه ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[2]، فبعضُ الناس يَتصوّر

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٠٦).

(٢) سورة الشورى: ٢٥.

أنّ القَبول في نفس اللحظة، فيطمئنُّ ويَتَسلّى ويَنسَى ذنبَه، وقد تَخِفُّ عليه معاوَدَتُه، وما من شكٍّ في صدقِ توبةِ كعب وصاحبيه ومع ذلك أُرجِئَ قَبولُ توبتهم خمسينَ ليلة، حتى ابتُلُوا بلاءً شديدًا، وضاقت عليهم الأرضُ بما رَحُبت، وضاقت عليهم أنفسُهم، ثم جاءهم الفرج، فنحن بحاجةٍ إلى التوبة التي تملأُ قَلْبَ صاحبها نَدَمًا وشجىً، فتدفعُه إلى الطاعة والمنافسةِ في الخير حتى يلقَى الله تعالى وهُو على أحسنِ حال.

فهذا عُمَر بنُ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمّا راجَع رسولَ الله ﷺ في صُلْحِ الحُدَيبية، قال: «فعمِلْت لذلك أعمالًا»[1]، وعُمَر هنا يَذكر ذنبَهُ بعد عَقدَيْن من الزّمَان، وهذه عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَعْتَقَتْ فِي نَذْرِهَا أَرْبَعِينَ رَقَبَةً، وَكَانَتْ تَذْكُرُ نَذْرَهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَتَبْكِي حَتَّى تَبُلَّ دُمُوعُهَا خِمَارَهَا[2].

٤- عجيبٌ أمرُ المدرسةِ النبويّة! كيف وصلتْ إلى هذه القمّةِ من التربية المتكاملةِ الشاملة جميعَ الأفراد رجالًا ونساءً وصبيانًا وعبيدًا، يأمُر ﷺ بهَجْرِ ثلاثةِ أفرادٍ من النّاس فيتّفقُ الجميعُ على مقاطعتِهم حتى أقاربُهم ومعارفُهم، وحتى نساؤُهم، فيعيش الواحدُ منهم في زِنزانة متجوِّلة، هل سُمِع بمثل هذا السجنِ الكبيرِ في تاريخ البشرية؟!، إنّ هذه التربيةَ القويّةَ لا تحتاج إلى نفَقاتٍ ولا إلى جهدٍ أو وَقْتٍ لكي يُطبَّقَ قرارٌ من قراراتها، فمجرَّدُ كلمةٍ في المسجد تُصبحُ واقعًا ملموسًا وأمرًا ملزِمًا للجميع، فرُقِيُّ المجتمع يُسَهِّل تحقيقَ الأهدافِ الكبيرة المنشودة

(١) صحيح البخاري (ح ٢٧٣٢).

(٢) صحيح البخاري (ح ٦٠٧٣).

ويُقلِّل التّكلِفة.. وراقِبْ أيَّ قرارٍ يَصدُر في زماننا ولو كان صغيرًا كَمْ يحتاجُ من الأموال والوقْتِ والجهد والحملات الإعلامية المكثّفةِ مع العقوبات المالية وغيرِها كي يُلتَزَمَ به؟، وكم نسبةُ تفلُّت المجتمع من هذا القرار؟

٥- الهجر في العُقُوبات الشرعيّة ليس له حَدٌّ مُعيَّن، بل حيثُ تقتضي مصلحةُ التأديبِ والتّربية للمهجور، بخلاف الهجْرِ الشّخصي الناتج عن خلافاتٍ فرديّةٍ قاصرة فلا يجوزُ أن يزيد على ثلاثةِ أيام.

٦- هكذا تأثيرُ الذُّنوب على القلوب الحيّة!، جلَسَ هذانِ المهجورانِ يبكيانِ ليس على الهجرِ ولا بسبَبِ مُقاطعة الناس لهما، ولكن خوفًا من ذُنوبهما وندمًا على ما فَرَطَ منهما، سُبحان الله! رجالٌ أبطالٌ شُجعان أهلُ غَزْوٍ وحَرْبٍ يَبكُون كما يَبكِي الأطفالُ!، لعَمْرُكَ إنّ هذه لَهي التزكيةُ للنفوس، والتربيةُ المتكاملةُ.

وتجدُ في زمانِنا هذا مَن لم يَبْكِ على خطيئته وذنبِه طَوَالَ عُمُرِه، ولم تَدمَعْ عينُه على تقصيرِه في جانبِ ربِّه وظُلمه نفْسَهُ دمعةً واحدة!.

٧- اعتذارُ كَعْبٍ لأخويْه بكونه أشبَّ منهما فيه بُعدٌ عن تزكية النفس، ونقاءٌ للنفسِ من داءِ العظمة، والتماسُ العُذر للآخَرين، وعدمُ الصُّعود على أكتافِ الناس.

٨- ينبغِي استغلالُ زَمَن الشّباب؛ واستخلاصُ كلِّ خيرٍ فيه قبلَ أن تتعطّل تلك الطاقاتُ أو يُحرَمَ من استغلالها؛ إذ يتحمّلُ المرءُ فيها ما لا يَتحمَّل في غيرها.

٩- تفريق كعْب بينه وبين صاحبَيْه بكونه أشبَّ منهما، يظهر أهميّة التّفريقِ بين المختلِفَيْن، وقليلٌ من الناس مَن يُفكِّر في التفريق بين نفسه وبين الناس في عمَلِ الطّاعة، معَ أنّ عنده من الطاقات والقدرات ما يَنبغي المنافسةُ به في سُبُل الخير والطاعات.

١٠- المسلمُ عنده ثوابتُ لا تتغيَّر، ونفسُه متّزنةٌ، متكاملة، واعية، واثقة؛ فهو في المسجد وفي السُّوق لا يَتغيَّر منه إلا الموقع، فأهلُ السُّوق هُم أهلُ المسجد، لم يَغُرَّهُم تسويقُ بِضاعتِهم والمنافسةُ في بيعِ تجارتهم بمخالفةِ أمْرِ رسول الله ﷺ بتكليمِ كعْبِ بن مالك.

١١- تعاطُف الناس مع مَن يخالطهم أكثرُ من تعاطُفِهم مع غيره، وإن كانوا في المصاب سواءً؛ فكُلُّ مَن اعتزل الناس في مُصابه أو مَرَضِه نَسِيَهُ الناس، أمّا مَن يجتمعُ معهم ويباشرُهم في مجالسهم فإنّهم يُشاركونه في قضيّته ويتعاطفون معه وإن كان المعتزلُ أشدَّ مُصابًا ومرضًا منه.

١٢- وفي القصّة أهميةُ الإعلام في اشتهار أيّ قضية مهما كانت، فمحور القضيّة هنا كعبٌ: تميّز عن المخلَّفين بخُروجه إلى الأسواق، وشُهودِه الصلاة، ومخالطتِهِ الناسَ مع الصبر، فأصبحتِ القضيّةُ كأنها قضيةُ كعبٍ، ولذلك نُسبت القصةُ إليه ولم تُنسَب إلى صاحبيه مع أنهما في الأمر سواء، بل يكاد أن يُنسَى اسما صاحبيه ﷺ أجمعين.

١٣- من المهمّ أن تُشارِكَ الآخرين في الخير ولو هجَرُوك؛ فكعبٌ لم يتخلّفْ عن أداء الصّلوات جماعةً مع وجودِ الحرجِ والألمِ في أدائها معهم، ولو جلَس في بيتِهِ لسَهُل عليه الهجْر.

١٤- كان بإمكان كعبٍ رضي الله عنه أن يخرُجَ إلى مزرعةٍ أو إلى أيِّ ضاحيةٍ من ضواحي المدينة ويَجلسَ فيها حتى يأذَنَ الله بالفرج، ولكنّه اختارَ مخالطةَ الناس وتجرَّعَ مرارةَ الهجْرِ المباشر فاكتسَبَ بذلك قوّةً في التحمُّل والصبر كانت له زادًا لما بقي من عُمُره في التعامُل مع الأزمات وتحمُّلِ الصعاب، فعلى المرء أن يستفيدَ من الأحداث ويربِّيَ نفسَه بها، ولا يترَكَها تَمُرُّ دون فائدة، أو يهرُبَ منها ويختفي.

١٥- قولُ كعْب: «هل حرَّك شفتَيْهِ بردِّ السلام عليّ أم لا؟»: قال ابنُ القيّم: «فيه دليلٌ على أنّ الردَّ على مَن يَستحِقُّ الهجْرَ غيرُ واجب؛ إذ لو وجب الرّدُّ لم يكن بُدٌّ من إسماعه». وفيه أيضًا عِظَمُ محبّةِ رسول الله ﷺ في قلوب أصحابه رضي الله عنهم، فمع هذه العقوبةِ والمقاطعة الشديدة يتطلَّع كعبٌ إلى تحرُّكِ شفَتَي النبيّ ﷺ تجاوبًا مع سلامِه عليه ولو بلا صوت!، فينبغي على المسلم أَن لا يَحمل في قلبه بُغضًا أو حِقدًا على مُسلمٍ من أجل أمرٍ وقع عليه.

أثَرُ مُراقبة اللّه عظيم

قَالَ كَعْبٌ: «حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ. فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بِاللهِ، هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ».

١- لقد اشتدّ الخطبُ وعَظُم الكربُ على كعب بن مالك، حتى ذهب إلى ابن عمِّه وأحبِّ الناس إليه مُتسوِّرًا عليه حائطَهُ يشكو إليه بثَّه وأحزانَهُ.

ولا بدَّ من شكْوَى إلى ذي مُروءةٍ يُواسيك أو يُسْليك أو يَتوَجَّعُ[1]

فالشّكْوَى إلى مَن يَزرَعُ فيك الأملَ ويُرغِّبُك في الترقِّي لها فائدةٌ كبيرة، أما الشّكْوى إلى غيره فضررها أكبرُ من نفعها، بل كما قيل: «ما زدتَ على أن شكَوْتَ من يَرحمُك إلى مَن لا يرحمك».

٢- لم تُؤدِّ الخلوةُ والمحبة والقرابةُ بينَ الرَّجلين إلى مخالفةِ أمرِ رسولِ الله ﷺ، وهذه نتيجةُ التربيةِ على مراقبة الله تعالى، فصاحبُ المراقبةِ لا يتصرَّفُ في الخلَوات بما يخالِفُه في الجلَوات.

٣- التراجُع تحتَ ضَغْطِ الواقع (المجتمع، العادات، التقاليد، الزوجة والأولاد، الأوهام والمخاوف..) من سماتِ مرحلتنا -نحنُ المعاصرين- أما كعبٌ فلم يؤثّرْ فيه هذا الضغطُ العظيم، فيَحمِلَهُ على التراجع، أو الطَّعْن في الحُكم، أو السّعي في نقضِه والانتصارِ بعشيرته على ذلك.

٤- لمّا طال الهجْرُ عليه رضي الله عنه ظنّ أنّ الناس يَشُكُّون في حُبّه لله ورسوله ﷺ، وهذا يدُلّ على خُطُورة الهجر؛ لأنّه قد يُفضي إلى خَلَلٍ في الإيمان أو الوقوعِ في فتنة، لهذا يَنبغي مراعاةُ المصالحِ وفِقْهُ الحالِ عند إجراء الهجر، فدراسةُ النفسيّات بسَلْبيّاتها وإيجابيّاتها مما يَنبغي التنبُّه له حينَ التربية والتأديب.

٥- قال ابنُ القيّم: «وفي قول أبي قتادةَ له: «اللهُ ورسولُه أعلم» دليلٌ على أنّ هذا ليس بخطابٍ ولا كلامٍ له، فلو حلف لا يكلِّمه، فقال مثلَ

(١) بيت من الطويل، لبشار بن برد.

هذا الكلام جوابًا له لم يَحنث، ولا سِيّما إذا لم ينْوِ به مكالمتَهُ، وهو الظاهرُ من حال أبي قتادة»[1].

٦- خرج مُتسوِّرًا الجدار، ومع ذلك لم يَرِقَّ له ابنُ عمّه وأحبُّ الناسِ إليه أو يُكلمْهُ أو يَعتذِرْ إليه، وليس هذا عن غِلظَةٍ وفظاظةٍ وجمودٍ في العواطف -حاشاهم-، وإنّما هو من تعظيمهم لأمرِ رسول الله ﷺ، وتقديمهم له على المشاعرِ والأحاسيس التي تَجيش في النّفْس، فهُم رضي الله عنهم كما وصفَهم الله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[2].

وكثيرٌ من الناس اليوم تأخذُهُ الرّحمة بولدِه، فيُغلِّبُها على أمرِ الله ورسولِه ﷺ، وقد يَصِلُ به الأمرُ إلى عدم إيقاظه لصلاةِ الفجر في شدّة البرد أو عند التّعَب!، وبعضُهم قد تحمِلُه الحميّةُ على إسقاطِ حدٍّ من حدود الله وجَبَ على أحدٍ من قرابته.

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٠٧).

(٢) سورة الفتح: ٢٩.

استعلاء المؤمن بإيمانه

قَالَ كَعْبٌ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنْ الْبَلاَءِ فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا».

قال ابنُ القيّم: «وفي مُكاتبة مَلِك غسّانَ له بالمصير إليه ابتلاءٌ من الله تعالى، وامتحانٌ لإيمانِه ومحبّته لله ورسوله، وإظهارٌ للصّحابة أنّه ليس ممن ضَعُف إيمانُه بهجْرِ النبيّ ﷺ والمسلمين له، ولا هو ممن تَحمِلُه

الرّغبةُ في الجاه والملك مع هِجْران الرسولِ والمؤمنين له على مُفارقة دينِه، فهذا فيه مِن تبرئة اللهِ له من النّفاق، وإظهارِ قُوّة إيمانه، وصِدقِه لرسوله وللمسلمين ما هو من تمام نعمةِ الله عليه، ولُطْفه به، وجبرِه لكسره، وهذا البلاءُ يُظهِرُ لُبَّ الرجُل وسِرَّهُ، وما يَنطوِي عليه؛ فهو كالكِيرِ الذي يُخرِج الخبيث من الطّيِّب»[1].

١- لقد بلَغ الحزنُ وضِيقُ الصّدْرِ أَوْجَهُ عند كعْبٍ، وخاصّةً بعد موقفِ ابنِ عمه وأحبِّ الناس إليه، ثُمّ جاءه العَوْنُ من مُستوًى رفيع -مُستوى الملوك- وهو ضعيفٌ مُستضعَف مهجورٌ من الجميع، إلاّ أنّ دغدغة العواطفِ لم تُواجِه فردًا من مدرسةٍ هشّةٍ، ضعيفةِ البِنيةِ، مُهتزّة القناعة، بل واجهَتْ فردًا من أفرادِ المدرسة النبوية الرّاشدة المتكاملة، فلم يَرُدَّهُ أو يَصمُدْ أمامه فحسْبُ، بل عدَّهُ من البلاء! معَ أنّ المَثَلَ يقول: «الغريقُ يتعَلَّق بقَشّة»، وهُنا يظهَرُ الفَرقُ بين أهلِ الإيمان وأهلِ النِّفاق في الشدائد، أولئك يَزدادُون إيمانًا مع إيمانهم، والمنافقُون يَكشِفُون عما في صدورهم ويَكشِرون عن أنيابهم؛ قال الله تعالى واصفًا موقفَ المنافقين وموقفَ المؤمنين في شدَّةِ غزوة الأحزاب: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[2]، وقال عن المؤمنين: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾[3].

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٠٧).

(٢) سورة الأحزاب: ١٢.

(٣) سورة الأحزاب: ٢٢.

٢- محاولةُ الكفار شراءَ الذِّمَم وزَرْع العملاء في المجتمع الإسلامي- باستخدام أساليب الإغراء؛ لتحقيق أهدافهم- بيِّنةٌ هُنا، وهي دأبهُم في كُلّ زمان، وكم خُدِعَ بهم من أُناس! وسَقَط في شراكهم من الجهال !، وما أكثرَ العُملاءَ في زماننا ممن يُقدِّمُون التقاريرَ والدِّراساتِ للكُفّار.

٣- يَنبغي أن نعلَمَ أنّ متابعةَ أحداث المجتمع الإسلاميّ من قِبَل الكفار تقعُ على مُستوى الملوك!، فقضيّة كعب قضية اجتماعية لا غيرُ، ولهذا يجبُ التنبُّهُ إلى خُطورة الدِّراسات الاجتماعية التي يُقدِّمُها أبناءُ المسلمين في رسائلَ علميةٍ في بلادِ الكفار التي تتربصُ بنا الدّوائر، فتعمَلُ من تلك البحوثِ قاعدةَ بياناتٍ تبني عليها كثيرًا من أعمالها وعلاقاتها، مثلُ ما سبَقَ الاستعمارَ مِن رحلات وجولاتٍ لدراسة المجتمع؛ كما حصل من لورنس العرب. فتجسُّسُ الكفارِ على المسلمين من بداية الإسلام وإلى الآن لم ينقطِع!، لذا ينبغي الانتباهُ إلى الأعداء في أيِّ صورةٍ تصوَّروا بها؛ تُجارًا أو خبراءَ أو موظفين، فالأصلُ فيهم العداوةُ والتجسُّس كمثْلِ رسولِ ملِكِ غسّان الذي دخل باسمِ بائعِ طعام!.

٤- عنايةُ الكفّارِ تعظُم بالطاقات الشابّة أكثرَ من غيرِها؛ ولهذا أرسلَ ملِكُ غسّان لكعبٍ ولم يُرسِل لصاحبَيْه!؛ فينبغي رفعُ مُستوى التديُّن والوَعْي لدى شباب الأمّة. وقد لُوحِظ في بعض الجُمْهوريات إنشاءُ مراكِزَ أمريكيّة لانتقاء الأذكياء من شباب المسلمين وإرسالهم إلى أمريكا وإغرائِهم بالبقاء عندَهم، ومَن لم يستطيعوا استغلالَهُ قَتَلوه أو سلَّطوا عليه وسائلَ الفساد من كلِّ جانب لتدميرِه.

٥- المجتمعُ الإسلاميُّ مجتمعٌ رُبِيٍّ على التعاطُفِ والتّوادّ، والتراحُم والتّلاحُم، والتعارُف، فيعرِفون لكلٍّ حقَّه، فأين هذا المجتمعُ من حالِنا اليومَ؟!؛ إذ تجدُ كثيراً منّا لا يعرِفون جِيرانهُم فضلاً عن أهل حيِّهم، فكيف يُقدِّمون لهم خدمات؟، وكيف يخرُجون من تَبِعة قولِ رسولهم ﷺ: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلْيُكرِم جارَهُ»[1].

٦- في قول كعْب -كما في بعض الروايات-: «بلَغ بي ما قد وقَعْتُ فيه أن طَمِعَ فيَّ رجُلٌ من أهل الشِّرْك»[2] استصغارٌ للكفّارِ وازدراءٌ لهم، فقد استوَى لديه المِلكُ والرّجل العاديّ، وهذا يدُلُّ على استعلائِه بإيمانه واعتزازه بدينه. فيجبُ على المسلم أن يَشعُرَ أنّه أعظمُ بدينه من جميعِ الكفّار مهما ملَكُوا من مناصبِ الدّنيا، ويجبُ على كلِّ مسلم أن يكونَ أدنى المسلمين منزلةً وأحقرُهم مهنةً أجلَّ في قلبه من جميعِ الكفّار.

٧- بادر كعْبٌ بقطعِ علائقِ الشرِّ وأسبابه، فسجَّرَ بكتابِ الملك التّنُّورَ، ولم يُبْقِهِ عنده ليُطالِعَهُ، فيَنبغي للتائب أن يتخلَّص من كلِّ الوسائل التي تربِطُه بماضيه الفاسدِ من رسائلَ وصُوَر وهواتف.. إلخ.

٨- لم يذهبْ كعْبٌ بالكتاب إلى الرسول ﷺ؛ ليُطلِعَهُ عليه ويبينَّ مكانتَهُ، فضلاً عن استخدامِهِ ورَقةَ ضغْطٍ للإفراج عنه؛ لعلمِه أنّ المنةَ لله ورسوله ﷺ، فقليلٌ من الناس اليومَ مَن يشاهد مِنّةَ الله عليه بهدايته

(١) أخرجه البخاري (ح ٦٠١٩) واللفظ له، ومسلم (ح ٤٧)، عن أبي شُريح العدويّ رضي الله عنه.

(٢) المعجم الكبير للطبراني (١٩/ ٥٠).

للإسلام، حيثُ يتحدَّثُ عن نِعَم الله في الأمن، والطعام، والشراب، واللِّباس، وينسَى أعظمَ النِّعمِ وأجلَّها وأهمَّها وهي نعمةُ الإسلام التي لا تَعدِلُها نعمةٌ مهما بلغَتْ .

اشتدادُ الأزْمةِ بِشارَةٌ بالفَرَج

قَالَ كَعْبٌ: «حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنْ الْخَمْسِينَ إذا رَسُولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لاَ بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلاَ تَقْرَبْهَا، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِي هَذَا الأَمْرِ. قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: لاَ، وَلَكِنْ لاَ يَقْرَبْكِ، قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا، فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ

كَمَا أَذِنَ لامْرَأَةِ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لاَ أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ، فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ كَلاَمِنَا».

١- مهما أتى المسلمُ من عمَلٍ وارتكب من مخالفةٍ فإنّه تبقَى له قيمتُه في المجتمع المسلم، وتَظلُّ صِلتُه به قائمةً؛ فمتابعتُهُ ولو بالعقوبات فيها دَلالةٌ على اهتمام المجتمع به ومتابعتِهم لقضيّته، لقد أَمَرَ النّبيُّ ﷺ كعبًا أن يَقطع جميعَ العلائق حتى من زوجته فتجرَّدَ لله سبحانه وتعالى، ومن المعلوم أنّ المؤمن كلَّما أيسَ من البَشَر ازدادَ تعلُّقُه بالله جلّ وعلا وقرُب فرَجُه.

ضاقت فلما استحكمت حلَقاتها فُرجت وكنتُ أظنُّها لا تفرجُ[1]

٢- قال ابنُ القيّم: «في أمْرِ رسول الله ﷺ لهؤلاء الثلاثة أن يَعتزلوا نساءَهُم لمّا مضَى عليهم أربعون ليلة كالبِشارةِ بمقدِّمات الفرَج والفَتْح، من وجهين:

أحدُهما: كلامُه لهم، وإرسالُه إليهم بعد أن كان لا يكلِّمُهم بنفسِه ولا برسُولِه.

الثاني: من خُصُوصية أمرِهم باعتزالِ النساء، وفيه تنبيهٌ وإرشادٌ لهم إلى الجِدِّ والاجتهاد في العبادة، وشَدِّ المئزَرِ، واعتِزالِ محلِّ اللَّهْو واللّذّة،

(١) بيت من الكامل، للإمام الشافعي رحمه الله.

والتعوُّضِ عنه بالإقبال على العبادة، وفي هذا إيذانٌ بقُرْب الفَرَج، وأنه قد بقي من العَتْبِ أمرٌ يسير»[1].

٣- قال ابنُ القيّم: «ومن فِقْه هذه القصة أنّ زمَنَ العبادات يَنبغي فيه تجنُّبُ النساء، مثل: زمن الإحرام، وزمن الاعتكاف، وزمن الصِّيام، فأراد النبيُّ ﷺ أن يكون آخرُ هذه المدة في حقِّ هؤلاء بمنزلة أيام الإحرام والصّيام في توفُّرها على العبادة، ولم يأمُرْهم بذلك من أولِ المدّة رحمةً بهم وشفقةً عليهم؛ إذ لعلهم يَضعُف صبرُهم عن نسائهم في جميعها، فكان من اللُّطف بهم والرحمةِ أن أُمِروا بذلك في آخرِ المدة، كما يُؤمَرُ به الحاجُّ من حينِ يُحرِم، لا من حينِ يَعزِمُ على الحجّ»[2].

٤- وفي أمرِه باعتزالِ زوجته تدرُّج في العقوبة؛ فالتدرُّجُ في العقوبة يُتيح الفُرَصَ ويَفتح الخيارات.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾[3].

٥- إنّ مِن نِعَم الله على كعْبِ بن مالكٍ ما يَتمتّع به من الرضا والتسليم لله ورسوله ﷺ، فبمجرّد ما طُلِب منه اعتزالُ الزّوجة عرَضَ استِعدادًا أكبرَ وهو الطّلاق!..

(١) زاد المعاد (٣/ ٥١٠).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٥١٠).

(٣) سورة النساء: ٣٤.

٦- من أشدِّ العقوبات على أصحاب القلوبِ الحيّة عقوبةُ الهجْر، وخاصةً في المجتمعات المحافِظة التي يَظهر فيها التواصُلُ والتقارُب.. وهذا الهجرُ ينفَعُ مع مَن يهتَمُّ بانتقاء أصحابه وجُلَسائه، ومِن الناس اليومَ من لا يُجدِي فيهم الهجر؛ لأنهم لا يُهِمُّهم مَن يُجالسون، بل المهمُّ أن يَجِدُوا مَن يؤانسهم بغَضِّ النظَرِ عن نوعه ومُستواه.

٧- الأملُ في الله وحُسْنُ الظّنّ به وانتظارُ الفرَج منه مِن أعظم ما يُعين على تحمُّل الابتلاء، كما قال كعبٌ: «حتّى يَقضي اللهُ في هذا الأمر»: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1].

ما أسرَعَ اليأسَ في الناس اليوم!، كثيرٌ منهم ييأسُ لأي مُصيبة، أو مَرَضٍ يعرِضُ له، أو انحرافٍ وفسادٍ يقع من ولدِه، وهذا اليأسُ يُقعِد المرءَ عن معرفة الأسبابِ وتلافيها، ويَقطعُه عن سبل النّجاح، ولكنك تجد أصحاب الفألِ أهلَ اجتهادٍ وبحثٍ عن الوسائل التي تُوصل إلى النجاح.

٨- من علامة صلاحِ القلب واستقامته ويقظتِه معرفةُ الذنب والاقلاعُ عنه واستمرارُ النَدم عليه، وهذا دليلٌ على تعظيم الله وخوفه، ومَن كان بالله أعرَفَ كان منه أخْوَف، فاستمرارُ أثَرِ الذّنب في نفوس الصحابة إنّما هو من تعظيمهم لله عزّ وجلّ: «وما زال يَبكي منذُ كان من أمرِه». ومن الناس من يَنسَوْن ذنوبَهُم بعد ساعاتٍ، هذا إن عرفوها، وكان السلفُ الصالح يتذكَّر الواحدُ منهم ذنبَهُ بعد عُقودٍ من السنين، قال ابنُ سِيرين: «لما سُجنت تذكّرت ذنبًا عملتُه منذ أربعين سنة!».

(١) سورة يوسف: ٨٧.

٩- لقد وعَتِ النساءُ في زمن النبوة قيمةَ الزّوج وقدرَهُ وعظيمَ حقِّه ، وأنّ المرأة مصدَرُ سكنِ الرجل وأُنسِه وراحتِه، فقمن بخدمة أزواجهن ورعايتِهم، وبعضُ النّساء اليومَ تُسَرُّ بأيّ عُذرٍ يُتيح لها تركَ خدمةِ زوجها!.

١٠- القيادةُ الناجحة التي حَظِي بها مُجتمع الصحابة من النّبيّ ﷺ؛ امتدت إلى داخل البيوت، فجاءت المرأةُ تستأذِنُ في خدمة زوجِها وهي في بيته، وهذا من مظاهِرِ المحبّةِ الحقيقية لرسول الله ﷺ وتعظيم أمره، مع المراقبة لله جلّ وعلا، كما قالت تلك البنتُ لوالدتها: «إن كانَ عُمَرُ لا يرانا فإنّ ربَّ عُمرَ يرانا». وهذا من كمال هذا الدّين وشُموله جميعَ نواحي الحياة جليلَها ودقيقَها.

١١- تربّى الصحابةُ ﷺ على الوضوح والبساطة، فلا يَستحُون من الحقّ أن يذكُروه لرسول الله ﷺ مهما كان الأمرُ الذي يُستحَى منه مع احتفاظِهم بإجلالِ رسول الله ﷺ واحترامه، وتأدُّبِهم بالأدب النبويّ في التكنية عما يُستحَى منه..

إنّ السِّجنَ المعنويَّ الذي دخله كعبٌ وصاحباه قد نجَحَ نجاحًا كبيرًا، ولم تُسجّل فيه مخالفةٌ واحدة لمدة خمسين يومًا. وهذا أثَرٌ من آثارِ التربية النبوية التي شَمَلتْ جميعَ أفراد المجتمع، وفي هذا الزمنِ ما أكثَرَ من يُخالف لمجرّدِ المخالفة... وكم يُصرَف اليوم من الطّاقات والقدرات والإمكانات والأموال على محاربة جريمةٍ، أو تحقيقِ أمْنٍ، أو تطبيقِ نظام!، ومع ذلك لاتَتحقَّقُ الأهدافُ المنشودةُ ، ولو صرِفَ جزءٌ منها في تربيةِ المجتمع وتوجيهِه لوفّرْنا كثيرًا ولسَهُل علينا تحقيقُ أهدافِنا.

الاهتمامُ بالعَواقِب من الرشد

قَالَ كَعْبٌ: «وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَهَمُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ فَلاَ يُصَلِّي عَلَيَّ النَّبِيُّ، أَوْ يَمُوتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَكُونَ مِنَ النَّاسِ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ، فَلاَ يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلاَ يُصَلِّي عَلَيَّ».

١- لقد خشيَ كعبٌ على نفسه أن يُفتَن إذا طال عليه الهجْرُ بعد وفاةِ رسولِ الله ﷺ، فقد تَعرَّضَ لفتنةِ مَلِكِ غسّان في حياة الرسول ﷺ، وهو يَطمَعُ في التوبة، فكيف يكون الحالُ بعد موت النبي ﷺ؟. فيَنبغي للمسلم أن يخافَ على نفسه من الفتن، ويسألَ اللهَ الثباتَ في كلِّ حال.

ومن الناس من يتساهلُ بالفتن فيتعرَّض لمواطنها مثل: مشاهدة

المواقع السيئة في الإنترنت والقنوات، والسياحة، وحضور مجالس الشبهات والشهوات، وكلُّ هذا يؤدي إلى ضَعْفِ إيمانه أو الافتتان.

٢- يظهَرُ جليّاً اهتمامُ كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالعواقب، وخوفُه من سوءِ الخاتمة في هذه الحادثة الملِمّة، مع أنّ الأمرَ ليس بيدِه، فإنِ اشتهى أن يكلِّمَ أو يحادث أحدًا فلن يستطيع؛ ومن النّاس مَن لا يُلقِي بالًا للعواقب فيَعُقُّ والديه أو يقطعُ رَحِمَهُ، أو يتنكَّرُ لحقوق الناس، وينسَى أنّ الموتَ يأتي فُجَاءة؛ فقد يموتُ هو أو يموتُ صاحبُه، فيتمنّى أن لو كلّم فُلانًا أو لم يَهجُره أو استسمَحَه حقَّهُ، أو وصَل رحِمَه.

٣- اهتمّ كعبٌ بالأذى المعنويّ اهتمامًا كبيرًا: «...فأكون من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلِّمني أحدٌ ولا يُصلِّي عليّ»!. ومن الناس من لا يُبالي بما يَصِل إليه من كلام قبيح شديد، ولكن إذا أُصيب في بدنه أو ماله جَزِع واحتَدّ وغضِب، ولا يُحرِّك ساكنًا إذا وُصف بالجهل أو البُخل، أو الغَدْر والخيانة، أو المعصية فيصدق فيه قول القائل:

ما بالُ دينِك ترضى أن تُدنِّسه وثوبُك الدهرَ مغسولٌ من الدنس[1]

٤- ماذا يَرجُو كعبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الخير إذا اجتَنب رسولُ الله ﷺ الصلاةَ عليه: «...أن أموتَ فلا يصلِّي عليّ»!. أصحابُ القلوب الحيّة يهتمون لأمرِ دينِهم أكثرَ من أمرِ دنياهم، وأمّا أصحابُ القلوب الميتة فلا يَهتمُّون لأمرِ حاضرِهم فضلًا عن عاقبتهم، فتجدُ أحدَهم لا ينظر مَن يُجاوره ويساكنُه، بل مَن يُصاهره، فضلًا عمن يُصلِّي عليه أو يُغسِّله، فينبغي للمسلم أن يرغَبَ في صلاة أهلِ الخير عليه لما يُرجَى من قبول دعائهم.

(١) بيت من البسيط، لأبي العتاهية.

٥- يتبيّن من هذا بُعْدُ النظَرِ عند كعب رضي الله عنه؛ إذ قلّب الاحتمالاتِ التي يُمكن أن تقَعَ عليه في قضيّته، معَ إدراكه ما يَترتَّب عليها من نتائج.

٦- لقد تقرّر في نفوس الصّحابة رضي الله عنهم الالتزامُ التامُّ بأوامرِ رسول الله ﷺ، وعدم الخروج عليها مهما كانتِ التكاليف، ومهما كانت العلاقة، ولو مات رسول الله ﷺ، وهذه هي التربيةُ الراشدة، والإيمانُ الصادق، والحبُّ الحقيقيُّ لرسول الله ﷺ، والمراقبةُ الحقيقية لله ربِّ العالمين، ولهذا قال كعبٌ رضي الله عنه: «...فلا يكلِّمُني أحد».

وتربيةُ الناس اليومَ كثيرًا ما تكونُ متعلِّقةً بالأشخاص، تَبقَى ببقائِهم، وتذهَبُ بذَهابهم، فالأبناءُ يكونون في حياة أبيهم على قَدْرٍ من التعاوُن والأُلفة، وبمجرّدِ موتِ الأب يختلِفون ويتنازعون، وهذا دليلٌ على خَلَلٍ في التربية، والأصلُ أن يُربِّيهم على مراقبة الله، لا على مراقبته وخوفه، لتبقَى المعاني الطيبة في نفوسهم في حياته وبعد موته. وبعضُ الجمعياتِ والجهاتِ الخيرية والجماعاتِ الدعويّة قد تنتهي بمَوت مؤسِّسِها.

الأمة المسلمة كالجسد الواحد

قَالَ كَعْبٌ: «فَأَنْزَلَ اللهُ تَوْبَتَنَا عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ حِينَ بَقِيَ الثُّلُثُ الآخِرُ مِنْ اللَّيْلِ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ أُمِّ سَلَمَةَ، وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مُحْسِنَةً فِي شَأْنِي مَعْنِيَّةً فِي أَمْرِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا أُمَّ سَلَمَةَ، تِيبَ عَلَى كَعْبٍ. قَالَتْ: أَفَلاَ أُرْسِلُ إِلَيْهِ فَأُبَشِّرَهُ؟ قَالَ: إِذًا يَحْطِمَكُمُ النَّاسُ، فَيَمْنَعُونَكُمْ النَّوْمَ سَائِرَ اللَّيْلَةِ، حَتَّى إِذَا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاَةَ الْفَجْرِ آذَنَ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا».

١- لقد اتّصف مجتمع النبوّة بالتلاحُم والترابط فأصبَحوا كالجسد الواحد، يَعتبِرُ مُشكلةَ فَرْد مُشكلتَهُ حتى يَحُلّها، وقضيةَ شخص بعينه قضيتَهُ حتى يَقومَ بها، قد ارتفعت عنهم الأنانية والأثَرة، فلقد تحوَّلت

قصّةُ كعبٍ وصاحبَيْه من قضيّةٍ شخصية إلى قضيةِ أُمّة، والعقوبةُ التي صدَرَت فيهم عقوبةٌ شرعية ومع ذلك فالمجتمعُ كلُّه يَنتظِرُ حَلَّها على أحَرَّ من الجمر: «إذاً يَحطِمَكم الناس». وقد لا تجد اليومَ تجاوُبًا يُذكَر لقضايا شعوبٍ مسلمةٍ بأكملها تُحارَبُ وتُقصَفُ وتُباد!.

٢- شغَلَت قضيّتُه كلَّ البيوتِ حتى بيوتَ النّبيّ ﷺ، فها هِيَ ذي أمُّ سلمةَ تَعتني بأمرِ كعبِ بن مالك وتَحرِص على المبادرة بتبشيرِه، ويَظهَرُ من هذا ما كان عليه النّساءُ من الاهتمام بأُمُور المسلمين، والتفاعُلِ مع قضاياهم وأحداثِهم. وبعضُ نساء المسلمين اليومَ أوّلُ أوّليّاتها الاهتمامُ بالموضات والطّبخات.. مع أنّ القرآن رفَعَ هِمَمَ الجميع رجالًا ونساءً، صغارًا وكبارًا، وعلّقها بالعظماء فأوجَب الإسلامُ قراءةَ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ في كلِّ ركعةٍ، بمعنى أنّ هذه الآيةَ تُتلى سَبْعَ عَشْرَةَ مرّةً في كلِّ يوم على الأقلِّ، والمسلمُ يَسأل اللهَ فيها أن يَسلُك به طريقَ وسبيلَ الأنبياء والصّديقين والشهداء، ويُبعِده عن طريق اليهود والنصارى.

٣- المجتمعُ النبويُّ مجتمعٌ بُنيَ على تنظيم الأوقات «قالت: ألا أُرسلُ إليه؟...». فرُبِّي على موافقة السُّنن الإلهَية في النوم أوّلَ الليل، والقيامِ آخرَهُ، والانتشارِ في النهار.

ومن النّاس مَن عكَس الآيةَ فينامُ في النّهار، ويَنتشرُ في اللّيل، فأُصيب بأمراضٍ نفسية وعضوية، وتبدَّد وقته، وضاع عُمرُه.

٤- التعامُل الحسَنُ معَ المرأة يُثمِرُ تَعامُلًا جيِّدًا منها، فهذه أمُّ سلمة -وإن كانت تنتظرُ الفرَجَ من الله في قضية كعب- لم يَحمِلها الفرحُ بالتوبة

على كعبٍ على المبادرةِ بإرسال رسولٍ إليه بالبشارة، بل عرَضت الأمرَ على رسولِ الله ﷺ، فأجابها: «إذًا، يَحطِمَكم الناس»، فهذا الجوابُ يمثِّلُ مستوىً راقيًا في التعامل مع الزوجة، كما أنّ موقفَها يَحكي مستوىً عاليًا من الفهم والاحترام.

وأفرزت التربيةُ المعاصرة تبلُّدًا في الإحساس!؛ فتجدُ قيِّمَ الأُسرة يأمُرُ بأمرٍ صريحٍ يَصحَبُه رفعُ صوتٍ، ثم تهديدٌ ووعيد، ومع ذلك لا ينفَّذُ الأمر!، وفي القصة أيضًا دليلٌ على الرِّفق بالأهل؛ فهو ﷺ حريصٌ على راحتهم لا يُريد أن يَحطِمَهم الناس، وانظر إلى هدْي النّبيّ ﷺ في حديث عائشةَ رضي الله عنها: «فأخَذَ رداءَهُ رُوَيدًا، وانتَعَل رُوَيدًا، وفتح البابَ فخَرَج، ثم أجافَهُ رويدًا»[1] أخرجه مسلم.

٥- دقّةُ قياس الرّسول ﷺ لرُدُود فِعْل المجتمع أدّت إلى اتّخاذ إجراءاتٍ مناسبة لها. ومن الدعاةِ وطلبةِ العلم والمربِّين مَن يَفعَلُ الأمْرَ ثم يقول: ما كنتُ أدري أنه سيحدُث بسببه ما حدَث... وهذا دليلٌ على قِصَرِ الرُّؤية، والجهلِ بأحوال المجتمع، وضعفِ التّخطيط.

٦- المسجدُ منبرٌ إعلاميّ مُهمّ، يشهدُه كلُّ الناس، لا فرقَ بين صلاة الظُّهر والفَجْر، وهذا سرُّ عِزِّهم وانتصارِهم وعلوِّهم. وقد أدرَكَ اليهودُ هذا السرَّ؛ فلما سُئِلت رئيسةُ الوزراء اليهودية عن الخوف من انتصارِ العرب قالت: (اطمئنوا إنّهم لن ينتصرُوا علينا حتى يكونَ عدَدُ المصلِّين في صلاةِ الفجر مثلَ عدَدِهم في صلاة الجمعة)!.

(١) صحيح مسلم (٢/ ٦٧٠).

عاقِبةُ الصِّدق حميدة

قَالَ كَعْبٌ: «فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ: قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ، أَبْشِرْ! قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَآذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاَةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ، واللهِ، مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ،

وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ؛ يَقُولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْكَ، قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ، حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللهِ، مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، وَلاَ أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ».

١- لقد فرِح المجتمعُ كلُّه بتوبةِ كعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتسارَعُوا وتسابَقُوا للتّبشير وبدا المجتمعُ كأنّه في صباح العيدِ من الفرح والسرور بخلاص إخوتهم من أَسْرِ ذنبهم: «وركَض إليّ رجُل فرسًا وسعى ساعٍ...». وبعضُ الناس اليوم لا يُلقِي بالًا لتوبةِ مُسلم من ذنبه، وآخَرُون لا يَهتمُّون بالتهنئة والتبشير، أو لا يُبادرون بها، وعندَهُم من البلادةِ والجفاف العاطفِيّ ما يَحمِلُهم على قَوْلِ إنّه لا تلزَمُ التهنئةُ اليوم، وسأهنِّئه بعد أسبوع ، وقد لا يُهنِّئُه ولا بعْدَ سنة!. مع ما للتبشير من أثَرٍ كبير في المحبّة والمودّة وصفاءِ النفوس.

٢- حثَّ الشّرع على إدخال السُّرور على المسلم، فينبغي المنافسةُ في ذلك. ومن الناس اليوم مَن إذا فاز أخوهُ المسلمُ بشيءٍ حسَدَهُ بدَلَ أن يَفرَحَ له، وربّما سعَى في التنغيص عليه.

٣- تشابكَتْ اهتماماتُ جميع الصحابة فعايَشُوا قضيّة شخصية. وفي زمن المادِّيّات الذي نعيشه انصَبَّ اهتمامُ أكثر الناس على نفسه.

٤- جبلُ سَلْع مكانٌ للبَثِّ والإرسال: (وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ...)، فيه أهميّة إيصالِ صوتِ الخيرِ بأيِّ وسيلةٍ مشروعةٍ موصلةٍ إلى المقصود.

٥- بلَغَ الهجْرُ أوجَهُ مع كعبٍ ثم جاءَهُ الفرَجُ من الله العليّ الأعلى بالتوبةِ عليه، فلم يخرُج عن طَوْرِه أو يضطرِبْ في تعامُلِه مع الفرَح، ومثلُ هذا الحدثِ لا يصمُدُ له إلا عُظماءُ الرّجال.

وقد كثُر خطأ الناس في التطبيقاتِ للفرح في هذه الأيام؛ فمنهم من يخرُج عن طورِه الطبيعيّ، ومنهم من يتسبَّب فرَحُه في إيذاء الناس ولا سيّما الجيران، ومنهم من يسخِّرُه في معاصي الله جلّ وعلا.

٦- الفرجُ يأتي بعد شدَّة الكرب، يقول كعْبٌ: «فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله: قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرضُ بما رحبت سمعتُ صوتَ صارخ..».

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1]، فلا يأسَ من الفرج مهما اشتدّتِ الكروب وادلهمَّتِ الخطوب، وكما قيل:

اشتَدِّي أزمةُ تَنفرِجي قد آذَنَ ليلُك بالبَلَجِ[2]

وقال الآخر:

ضاقتْ فلما استَحكَمَتْ حلَقاتها فُرِجت وكنتُ أَظنُّها لا تُفرَجُ[3]

(١) سورة الشرح: ٥-٦.

(٢) بيت من المتدارك، ليوسف بن محمد التَّوْزَري المعروف بابن النحوي.

(٣) بيت من الكامل، للإمام الشافعي رحمه الله.

وقد فُسِّرَ اللطفُ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾[1] بأنّه إخفاءُ الأمورِ في صُوَرِ أضدادها:

اللطفُ إخفاءُ الأمورِ جاء في صُوَرِ الاضداد كما ليوسفِ
صيرَّهُ رِقًا لكي يَنـــــالا مُلكًا وعزًّا ربُّه تَعـــالى

وقيل:

لا تكرَهِ المَكروهَ عندَ نُزولِـــه إنَّ المَكارهَ لَم تَزَل مُتَباينَه
كَم نِعمَةٍ لَم تَستَقِلَّ بِشُكرِهـا للهِ في طَيِّ المَكارِهِ كامِنَه[2]

٧- الذنوبُ والمخالفات تكدِّرُ حياةَ المؤمن، فتضيقُ عليه الأرضُ مع سَعَتِها، وتَضيقُ عليه نفسُه، فلا يجد لَذَّةً ولا راحةً في مالٍ ولا ولدٍ، ولا مَسكنٍ ولا مركَب.

ولستُ أرى السعادةَ جمعَ مالٍ ولكنّ التقيَّ هو السعيدُ[3]

٨- لم يُذهِل الفرحُ كعبًا عن سُجود الشكر، وهذا مما يدُلُّ على قُرْبِه من الله جلّ وعلا، وفراغِ قلبه ممّن سِواه، وعدمِ انفصال العاطفةِ عن العقل.

٩- المشاركةُ القلبية والعمليّة والتفاعُل في المجتمع النبويِّ ناتجٌ عن التطبيقِ العمليّ للإسلام.. وكثيرٌ من الناس يُمكن أن يشارِك

(١) سورة الشورى: ١٩.

(٢) بيتان من الكامل منسوبان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) بيت من الوافر، للنابغة الشيباني، من قصيدة مطلعها:
أَتَصرِمُ أَم تُواصِلُكَ النَجودُ وَلَيسَ لَها وَإِن وَصَلَتكَ جودُ

بقلبه، لكن قليلٌ منهم مَن يتّخذُ خُطواتٍ عمليةً في المشاركة لإخوانه في أفراحهم وأتراحِهم، وقد تجِدُ مَن يَعلم أن أخًا له يَعيش في مُشكلة اجتماعية ولا يُفكّر في المشاركة في حلِّها، أو يعلمُ أنّ ظلماً وقع على أحدِ المسلمين فلا يَسعى لرفعه.

١٠- في الحديثِ مشروعيةُ مكافأةِ البشيرِ في حينه بلا تأخير، وهذا مما يرسِّخ التعاطُف والتوادّ والتراحُم في القلوب.

١١- استعارةُ الملابِس مظهرٌ للبساطة مع سُموِّ النفس، بخلاف مَن يَستنكِف عن لُبس ثوبِ أخيه وهُم في بيتٍ واحد، ويستهجنُ إهداءَ الثوبِ أو العمامة أو الحذاء.

١٢- لم يطلُبِ المبشِّر هديّةً أكبرَ مع عِظَم البشارة، وهذا يدل على عدم تشوفه لها وإنما بشَّرَهُ فرَحًا وسرورًا، ورَغبةً في كشف الغُمّة عن أخيه.

١٣- الصحابةُ ﷺ يحفظون ودادَ موقفٍ واحدٍ وإن صغُر، فكعْبٌ لم ينسَ لطلحةَ قيامَهُ لتهنئته. وما أكثَرَ مَن يتنكّر للمعروف، بل رأينا مَن يقابلُه بالإساءة، ولكن هذا لا يَمنع من فِعلِ المعروف؛ لأنه لا يَنبغي أن يُفعلَ على شرطِ المكافأة، «إذا أحسنتَ فانتظِرِ الإساءة»[1].

(١) الأخلاق والسير ص١١٧.

بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم

«قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ السُّرُورِ: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ، قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ الله أَمْ مِنْ عِنْدِ الله؟ قَالَ: لاَ، بَلْ مِنْ عِنْدِ الله، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى الله وَإِلَى رَسُولِ الله، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ الله إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لاَ أُحَدِّثَ إِلاَّ صِدْقًا مَا بَقِيتُ، فَوَالله

مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلاَهُ اللهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلاَنِي، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللهُ فِيمَا بَقِيتُ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فَوَاللهِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلإِسْلاَمِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ لاَ أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لأَحَدٍ؛ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، قَالَ كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللهُ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾، وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنِ الْغَزْوِ إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ».

١- قال ابنُ القيّم: «وفي سُرور رسولِ الله ﷺ بذلك وفرحِه به واستنارةِ وجهِه دليلٌ على ما جعل الله فيه من كمالِ الشّفقة على الأمّة، والرحمةِ بهم والرأفة، حتى لعلّ فرحَهُ كان أعظمَ من فرحِ كعب وصاحبَيْه»[1]. وقد تبلُغُ الرّحمةُ ببعضِ المسلمين أن يفرَحَ بما ينالُ إخوانُه من الخير أكثرَ من فرحِهم لأنفسهم.

(١) زاد المعاد (٥/ ٣١١).

٢- يتبيّنُ من القِصّة متابعةُ الصحابة لرسول الله ﷺ ومعرفتُهم به في جميع أحوالِه من سرورٍ وغيره. وهكذا ينبغي أن يكونَ المصاحِبُ أهلَ العلم والفضل، وكان عبدُ الرحمن بنُ القاسم رحمه الله يقول: كنتُ آتي مالكاً غلَساً، فأسألُه عن مسألتين، ثلاثة، أربعة، وكنتُ أجدُ منه في ذلك الوقتِ انشراحَ صدرٍ، فكنتُ آتي كلَّ سحَرٍ.

٣- من مكارمِ أخلاقِ الرَّسول ﷺ تلقِّيه لكعبٍ بالبُشرى، مع أنّه آذَن الناسَ ليُبشِّروه، وسماعُ كعبٍ للبُشرى من رسولِ الله ﷺ ليس كسماعه لها من غيره.

٤- لقد نال كعبٌ وِسامَ شَرَفٍ عظيم من الله تعالى على لسان خيرِ البرية رسول الله ﷺ، يعدِلُ كلَّ عملٍ عمِلَه كعبٌ، أو كلّ مشهدٍ شهِدَهُ مع رسول الله ﷺ، فما أعظمَ شأنَ التوبة وأرفعَ منزلتَها عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ.

٥- إنفاقُ المال من الشكرِ العمليّ على النعمة ومن الصدقِ في التوبة، والصدقِ في البذل، وطلبِ دوام النعمة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[1]. وإنفاقُ المال شُكرًا للنعمة خاصة في ترك الذنوب وطلبِ التوبة يكادُ يُفقَد في زماننا.

٦- عِظَمُ الفرح، والبُشرى، ووِسام الشّرف الذي قلّده رسولُ لله ﷺ كعبًا لم يَمنعِ النّبيَّ ﷺ من النّظر في مصالح كعبٍ المالية؛ فأمَرَهُ بالإبقاء

(١) سورة إبراهيم: ٧.

على بعضِ ماله. ولذا يَنبغي النُّصحُ للمسلم والنظرُ في الأصلح له، ولو في إبقاء بعضِ مالِه الذي يريد أن يُنفقه في سبيل الله. فيحسُنُ بالعالم وطالبِ العلم أن يَحرِصَ على نفع الناس والنّصيحةِ لهم في دينِهم، ودنياهم، ولا ينبغي أن يطغَى الفرحُ فيقعَ الضّرر.

٧- النجاةُ من الهلاك في الدِّين من أعظمِ النِّعم، ومن الناس من يَقصُرُ النِّعَمَ على الأكل، والشرب، والصِّحةَ، والأمن، وينسى ما هو أعظمُ منها: كالتوفيقِ للطاعة، والنجاةِ من الفتن وتركِ الذنوب، فلو أُهديتْ له سيارةٌ لَبَقِيَ دهرًا فرِحًا، أما إذا وُفِّق لطاعةٍ عظيمة لم يَظهر عليه مثلُ ذلك الفرح، مع أنّ الله يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1]، وجاء عن عمرَ رضي الله عنه لمّا جيء بكُنوز كسرى وقيصر ووُضعت أكوامًا أمامَه فقال مولاهُ: بمثل هذا فليُفرَح أنّه قال: كذَبْتَ، ثمّ تلا الآيةَ، ثمّ قال: «هذا مما يَجمَعون»[2].

٨- إنّ من أعظمِ نِعَمِ الله على العبد أن يُوفِّقه لمعرفةِ حقائقِ الأُمور على وجهها، وإدراكِ العواقب الحميدة لها، والسرورِ بالعملِ الصّالح وإن كان شاقّاً على النفس، قال كعبٌ: «فَوَالله ما أَنْعَمَ الله عليَّ من نِعْمةٍ قَطُّ بعدَ أن هداني للإسلام أَعظَمَ في نفسي من صِدقِي لرسولِ الله ﷺ أن لا أكون كذبتُهُ». وكثيرٌ من الناس يقول: فعلتُ خيرًا ولقيتُ من النّاس شرًا، ومثلُ هذا مستعجِلٌ للعاقبة، وما يدريك؟ لعلّ الله ادّخَر

(١) سورة يونس: ٥٨.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٦٠)، تفسير ابن كثير (٢/ ٥٥٣).

لك خيرًا تجدُهُ أحوَجَ ما تكونُ إليه، إمّا في الدنيا أو الآخرة، أو أنّ الله قد دفع به عنك شرّاً عظيماً.

٩- ينبغي الاستفادةُ من الخطإ في تربية النفس: «ما تعَمَّدتُ مُنذُ ذكَرتُ ذلك لرسولِ الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا، وإني لأرجو أن يَحفظني الله فيما بَقِيتُ...»، مع وجوبِ الاعتمادِ التامّ على الله، وعدمِ الاتّكال على النفس ، وكم يقعُ الإنسان في أخطاءٍ وتتكرّر ولا يَستفيدُ منها!، فضلًا عن الاستفادةِ من أخطاءِ غيرِه، وكم ممن تأخذُه نشوةُ النّجاة والانتصارِ والنجاحِ فينسَى فضلَ الله عليه، وتأييدَهُ له.

١٠- عرَف كعْبٌ قيمةَ الصِّدقِ التي نالها بجُهدٍ وابتلاء: «والله ما أنعمَ الله عليّ من نعمةٍ قطُّ بعد أن هداني...»، ومن الناس من إذا صَدَق في أمرٍ ثم ناله بلاءٌ عزَم على الكذِب مستقبلًا!.

١١- ترتفع قيمةُ الشيء بقَدْر ما يُبذَل فيه من جُهدٍ ومشقّة، وعناءٍ وابتلاء، ولهذا ارتفعت قيمةُ الصدق عند كعبٍ رضي الله عنه أكثر من غيره.

١٢- من كمالِ إيمان كعْبٍ عدمُ تزكيته لنفسه، والتبرؤُ من الحول والقوّة إلا بالله تعالى: «وإني لأرجو أن يَحفظَني الله فِيمَا بَقِيتُ».

الخاتمةُ

أخي القارئ: لعلك استمتَعْتَ حين أبحرنا وإيّاك في المجتمع النبويّ الطاهر الشّريف كأنّنا نراه، ونعايشُ تلك الأجواءَ النقيّةَ التي تعطّرتْ بأنفاسِ رسول الله ﷺ.

ومما استفدناه من هذه الجولة الشيقة:

- أنّه يَنبغي أن نعملَ على إصلاحِ أنفُسِنا؛ كي نستمتعَ بمثلِ هذه الأجواء.

- أنّه يجب أن نَستشعر عظمةَ سيرةِ النّبيِّ ﷺ، وأنها النموذج التطبيقيُّ العمليّ للحياة السعيدة.

- لقد لَمَسْنا جميعاً عاقبةَ الصّدقِ وأثَرَهُ في النّصر، ولو بَدا مُرًّا في بادئ الأمر، وكيف يَتجاوب المجتمعُ بأكمله مع الصادق حين يَلتزِم خلُقَ الصِّدق.

- لعلّك أدركتَ أهميةَ العنايةِ باستنباط الدروس والفوائد من السيرة النبوية.

- نحتاجُ إلى جَلَسات كثيرةٍ نتدارسُ فيها سيرةَ نبيِّنا ﷺ، ونترسَّمُ طريقَه، ونستلْهِمُ منها العظاتِ والعِبَرَ.

والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلّى اللهُ وسَلَّمَ على سيِّدِ الأنبياء والمرسلين، محمّدِ بنِ عبدِ الله وعلى آلِه وصحبِه.

حديث كعب بن مالك

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قال: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلاَّ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلاَمِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا. كَانَ مِنْ خَبَرِي: أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ وَ اللهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ.

وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلاَّ وَرَّى بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ

تِلْكَ الْغَزْوَةُ، غَزَاهَا رَسُولُ الله ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ.

وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ كَثِيرٌ، وَلاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ، يُرِيدُ الدِّيوَانَ، قَالَ كَعْبٌ: فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلاَّ ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ الله، وَغَزَا رَسُولُ الله ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتْ الثِّمَارُ وَالظِّلاَلُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ.

فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، فَقُلْتُ: أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ، وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ.

فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ الله ﷺ فَطُفْتُ فِيهِمْ أَحْزَنَنِي أَنِّي لاَ أَرَى إِلاَّ رَجُلاً مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ أَوْ رَجُلاً مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ مِنْ الضُّعَفَاءِ.

وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: مَا فَعَلَ كَعْبٌ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ الله حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَالله

يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي، وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا، وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَادِمًا.

وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلاَنِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللهِ.

فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، إِنِّي وَاللهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللهِ، لاَ وَاللهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، واللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ.

فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ، فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي: وَاللهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لاَ تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ

اللهِ ﷺ لَكَ، فَوَاللهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، رَجُلاَنِ قَالاَ مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ وَهِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي.

فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ، فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي: واللهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لاَ تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَكَ، فَوَاللهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، رَجُلاَنِ قَالاَ مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ وَهِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي.

وَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلاَمِنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلاَةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلاَ يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلاَمِ عَلَيَّ أَمْ لاَ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاَتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي.

حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ. فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بالله، هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ.

فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلاَءِ فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا.

حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لاَ بَلْ اعْتَزِلْهَا وَلاَ تَقْرَبْهَا، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِي هَذَا الأَمْرِ. قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: لاَ، وَلَكِنْ لاَ يَقْرَبْكِ، قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا، فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لامْرَأَةِ

هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لاَ أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ، فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ كَلاَمِنَا.

وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَهَمَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ فَلاَ يُصَلِّيَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ، أَوْ يَمُوتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَكُونَ مِنَ النَّاسِ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ، فَلاَ يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلاَ يُصَلِّي عَلَيَّ.

فَأَنْزَلَ اللهُ تَوْبَتَنَا عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ حِينَ بَقِيَ الثُّلُثُ الآخِرُ مِنَ اللَّيْلِ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ أُمِّ سَلَمَةَ، وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مُحْسِنَةً فِي شَأْنِي مُعْنِيَةً فِي أَمْرِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا أُمَّ سَلَمَةَ، تِيبَ عَلَى كَعْبٍ. قَالَتْ: أَفَلاَ أُرْسِلُ إِلَيْهِ فَأُبَشِّرُهُ؟ قَالَ: إِذًا يَحْطِمَكُمُ النَّاسُ، فَيَمْنَعُونَكُمُ النَّوْمَ سَائِرَ اللَّيْلَةِ حَتَّى إِذَا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاَةَ الْفَجْرِ آذَنَ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا.

فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ: قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ، أَبْشِرْ! قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَآذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاَةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ، وَاللهِ، مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ،

وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنْ فَلَبِسْتُهُمَا، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ؛ يَقُولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْكَ، قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ، حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللهِ، مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، وَلاَ أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ.

فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ السُّرُورِ: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ، قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟ قَالَ: لاَ، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِ اللهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لاَ أُحَدِّثَ إِلاَّ صِدْقًا مَا بَقِيتُ، فَوَاللهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَبْلاَهُ اللهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلاَنِي، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللهُ فِيمَا بَقِيتُ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فَوَاللهِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلإِسْلاَمِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ لاَ أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا

حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شرَّ مَا قَالَ لأَحَدٍ؛ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ إِلَى قَوْلِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، قَالَ كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللهُ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾، وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنْ الْغَزْوِ إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ».

[أخرجه البخاري ح٤٤١٨، ومسلم ح٢٧٦٩].

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
بِر الوالدَين بركة	٩
لا مُسوِّغَ للتقاعُس عن عمَلِ الخير	١٣
لكلّ حالةٍ ما يناسبُها	١٧
المجتمع تربى على تحمل المسؤولية	١٩
في التسويف تضييعٌ للفُرَص	٢٣
القلبُ الحيّ لا يَأنَس مع المتخاذِلِين	٢٧

الموضوع	رقم الصفحة
صاحب المواقف يُفتقَد	٣١
التأنّي في اتّخاذ القرارات سَداد	٣٥
اختلاقُ الأعذارِ سلاحُ المتخاذِلين	٣٩
التّبعاتُ على قَدْرِ الإمكانات	٤٣
التأسِّي بالصّالحين يُخفِّفُ الأثقال	٤٩
التربية النبويّة كاملة	٥٣
أثَرُ مُراقبة الله عظيم	٥٩
استعلاء المؤمن بإيمانه	٦٣
اشتدادُ الأزْمةِ بِشارَةٌ بالفَرَج	٦٩
الاهتمامُ بالعَواقِب من الرشد	٧٥
الأمة المسلمة كالجسد الواحد	٧٩
عاقِبةُ الصِّدق حميدة	٨٣
بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم	٨٩
الخاتمةُ	٩٥
حديث كعب بن مالك	٩٧
فهرس الموضوعات	١٠٥